

تقرير
الحالة الحاضرة لمصر
١٦٧١

تأليف: جوفنى ميكيله فنسليبو
ترجمة: وديع عوض
تقديم: محمد عفيفى

1005
المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة

" تقرير الحالة الحاضرة لمصر " يدخل فى نمط أدب الرحلات، لكن المؤلف هنا بدلاً من ذكر مواد كتابه حسب التسلسل الزمنى، كما يفعل أكثر الرحالة، قسَّم كتابه إلى خمسة أجزاء متفاوتة الحجم والأهمية وهى عبارة عن خمس لوحات يصور فيها مشاهداته وانطباعاته.

وقد تفرَّد المؤلف بعرضه حال الكنيسة القبطية؛ حيث لم يتطرق مثله أى رحالة غربى من قبله أو من بعده لحالة أقباط مصر. إنه يعرض هذه الحالة لا عن سماع، أو نقل عن مولفين سابقين، بل عن مشاهدة ومعايشة وصداقة للبطريرك ولبعض الأقباط، وهى صداقة ستتوطد فى الرحلة الثانية وتمتد لتشمل أساقفة وكهنة ورهباناً .

الغلاف: محمود مراد

تقرير الحالة الحاضرة لمصر

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٠٥
- تقرير الحالة الحاضرة لمصر
- جوفنى ميكيله ڤَنْسْلِبْيو
- وديع عوض
- محمد عفيفى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب :

RELAZIONE DELLO STATO PRESENTE DELL'EGITTO,

Scritta dal Signore Gio. Michele Vanslebio

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

المشروع القومى للترجمة

تقرير الحالة الحاضرة لمصر

تحرير : جوڤنّى ميكيله ڤَنْسْلِبْيو

ترجمة : وديع عوض

تقديم : محمد عفيفى

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٦

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تقرير الحالة الحاضرة لمصر
ڤنسلبيو ، جوڤنى ميكيله
ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦
٢٨٨ ص ، ١٧ × ٢٤ سم
١ - مصر تاريخ - العصر الحديث
(أ) ڤنسلبيو ، جوڤنى ميكيله
(ب) عوض ، وديع (مترجم)
(جـ) عفيفى ، محمد (مقدم)

رقم الإيداع ١٥٣٠٢ /٢٠٠٦
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-305-961-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

فهرس الكتاب

(من إعداد المترجم)

تقـــــديم

نتذكر جميعًا الكتاب الشهير لإدوار سعيد « الاستشراق » هذا الكتاب الذى أصبح بمثابة انقلابٍ حقيقىٍ على التراث الغربى فى الدراسات الشرقية ، والذى أوضح مدى « تقليدية » الصورة الشرقية التى رسمها الاستشراق والمستشرقون ، ثم مدى تأثير هذه الصورة على العقلية الغربية .

تذكرت ذلك الكتاب الشهير وأنا أقرأ هذه الترجمة الذكية لكتاب الرحالة ڤانسلب ، والذى أشكر الأب وديع على صدور هذه الترجمة السلسة لمصدر من المصادر التاريخية تأثرت به معظم الكتابات الغربية والشرقية التى تناولت تاريخ هذه الفترة.

ويجرنا ذلك للإشارة إلى مدى الأهمية الكبيرة التى أعطاها المؤرخون إلى كتابات الرحالة الغربيين كمصدر « أساسى » لتاريخ مصر فى العصر العثمانى ، وأدى ذلك إلى نتائج غير دقيقة عن حالة مصر آنذاك ، ولم يظهر ذلك إلا عندما تم تنظيم الأرشيف المصرى ، واكتشاف العديد من المصادر الوثائقية الجديدة التى ألقت أضواء عديدة على الفترة محل البحث ، ونقدت العديد من المعلومات والآراء التى جاءت فى كتابات الرحالة الغربيين ، وهكذا تراجعت كتابات الرحالة لتصبح مصادر « ثانوية » فى كتابة التاريخ . ولا يعنى ذلك عدم أهمية هذه الكتابات والتى سنعود لذكرها فى آخر تقديمنا لهذا الكتاب .

وأول الأسئلة التى تتبادر إلى الذهن عند التعرض لكتابات الرحالة الغربيين ، إلى مَنْ توجه هذه الكتابات ؟

فى الحقيقة تكتب هذه الرحلات لقارئ غربى لديه صورة تقليدية ساخنة عن هذا الشرق العجيب ، فهذه الكتابات ، فى الحقيقة ، ترسخ هذه الصورة ولا تغيرها ، وهى تغازل ذهنية القارئ الغربى . ومن ناحية أخرى تكتب هذه الرحلات فى صورة « تقرير » مفصل يرفع إلى « صاحب القرار » لتكوين صورة شاملة عن بلدان الشرق تخدم المصالح الاستعمارية الجديدة ، التى بدأت فى التكون مع ضعف رجل أوروبا المريض « الدولة العثمانية » ، أو مع عودة الاهتمام بطرق التجارة الشرقية القديمة ، التى لم يستطع اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى محو أهميتها الاستراتيجية .

ولا نستطيع تجاهل الطابع الدينى لهذه الرحلات ؛ إذ يقوم بالكثير منها العديد من المبشرين الكاثوليك والبروتستانت ، ويتم ذلك ، فى الحقيقة ، فى إطار جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات وأيضًا المخطوطات – كما فى حالة ڤنسلب – عن مسيحيى الشرق لاسيما الأقباط والمملكة السحرية فى أفريقيا ونقصد بها الحبشة ، ذات التراث المسيحى القديم المرتبط بالتبعية للكنيسة القبطية . إن كل ذلك يدور فى إطار المخطط العالمى لتحويل مسيحيى الشرق من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية والبروتستانتية ، وهنا نجد قصة طويلة من جهاد الكنيسة القبطية « الوطنية » للحفاظ على تراث الأجداد «الشهداء » من التبعية إلى « الفرنج » .

فى هذا الإطار التاريخى والمنهجى نستطيع قراءة رحلة ڤنسلب ، فهو من ناحية يؤكد النظرة الغربية التقليدية عن أهل الشرق الخامل فى الجهل عندما يقول عن أهل مصر :

« إنهم متبلدو الطبع كسالى بطالون، يقضون اليوم بأسره فى الساحات متدثرين « ببردهم » ، وهو نوع من لبس الفلاحين ، أو يكتفون بالجلوس على المقاهى ، أو يجلسون فى المزارع زرافات على شاطئ النيل ، حيث يشربون القهوة ويدخنون التبغ أو ينامون وعندما كنت أرى هذه الزمرة من الكسالى كنت أقول لنفسى أية كنوز كان يمكن أن يقدمها هذا البلد لو كان يسكنه أناس مجتهدون ومحبو التعب ، ثم يقرر أن التحضر

لهؤلاء الناس لا يأتى إلا من اختلاطهم بالأوروبيين « وبالابتعاد أكثر عن القاهرة تجدهم أكثر توحشًا وذلك بسبب بعدهم الكبير عن التعامل مع الفرنج ». وهو هنا يتشابه مع الصورة نفسها والتحليل الذى قدمه علماء الحملة الفرنسية – بعد ذلك – فى هذا الشأن ، إننا هنا أمام رسالة « الرجل الأبيض » فى نشر الحضارة فى الشرق ، وتختلف هذه الصورة تمامًا عن الصورة التى يرسمها الرحالة المسلمون لمصر فى ذلك العصر ، فهم يتحدثون عن الكثافة السكانية والحركة السريعة فى الأماكن التجارية « كأنهم فى يوم الحشر » وعن ثروة مصر الاقتصادية مقارنة بالبلدان الإسلامية الأخرى ، وعن الأزهر ومكانته الثقافية والدينية ، إننا هنا إزاء مفهوم « الرحالة » واختلافه عبر الثقافات المتباينة .

وبالنسبة للنقطة الثانية والخاصة بكتابة « الرحلة » كتقرير مرفوع إلى « أولى الأمر » فى الغرب ، فإن هذا نلحظه فى مقدمة رحلة ڤنسلب « هذا تقرير الحالة الحاضرة لمصر ، وفيه يُقدم بيان دقيق للأمور الطبيعية للبلد والحكم السياسى القائم فيه ، فى ديانة الأقباط ، فى العمارات الباهرة التى تُرى إلى اليوم فيه » « ومُهدى إلى صاحب السمو كزمو دى ميد شيٍ دوق تسكانا الأعظم »، وأصبح الآن واضحًا أن هذه الكتابات مهدت الطريق إلى فكرة استعمار الشرق بعد ذلك .

أما المسألة الثالثة فى مثل هذه الكتابات ، فهى وضوح طبيعة النشاط التبشيرى فى هذه الأعمال؛ إذ يذكر ڤنسلب أنه طلب منه التحرى عن الحالة الكنسية فى مصر وطبيعة ديانة الأقباط ، فى إطار خدمة الرؤية العالمية لخدمة التبشير آنذاك ويتضح ذلك من وصف ڤنسلب للأقباط بأنهم « هراطقة » أى خارجين عن الإيمان المسيحى ، وهى قصة طويلة ترجع إلى أيام المجامع المسكونية والخلافات الدينية .

وحتى عندما يمتدح ڤنسلب التزام الأقباط بالشعائر الدينية يتحسر قائلاً « لو لم يكونوا منشقين – أى خارجين عن الإيمان المسيحى من وجهة نظره – لكانوا أفضل أهل العالم من ناحية تطبيق الشعائر المسيحية » .

ولا يعنى ذلك خلو كتابات الرحالة الغربيين من الأهمية ، على العكس ، نحن نقر

بأن هذه الكتابات مليئة بالإيديولوچيا الغربية والدينية ، لكنها فى غاية الأهمية من الناحية التاريخية ، سواء فى منهج الدراسة وتناول موضوعات لا نجدها فى المصادر الأخرى ، كالعادات والتقاليد ، والمناخ ، والجغرافيا ، والطبوغرافيا ، أو حتى فى النظرة إلى المجتمع من الخارج ، ونقدم بعض الأمثلة عن النقاط المهمة والمثيرة التى ترد فى هذا الكتاب .

إذ يقر ڤنسلب بأن اليونانيين قد نقلوا الحضارة عن القبط الذين هم فى الحقيقة المصريون القدماء ، كما يؤكد مقولة أخرى مثيرة للجدل حتى الآن حول طبيعة وأصل سكان مصر من المسلمين ، إذ يرى أنهم من أصل قبطى :

« ويدعى عرباً أولئك الذين هم من نسل الأقباط نفسه (أى نسل الملوك القدماء المدعوين قبط) غير أنهم مسلمون ، أما الأقباط فهم كما قلنا أولئك الذين يتبعون الديانة المسيحية » .

ومن النقاط التاريخية المثيرة للجدل ، فى هذا الكتاب ، نظرة ڤنسلب إلى موقف العثمانيين من مسألة الأقليات أو حسب تعبير العصر « أهل الذمة » ؛ إذ يشير إلى احترام العثمانيين لحرية المعتقد الدينى « فى الحقيقة يمنح الأتراك حرية الضمير لكل فرد وهذا لا فى مصر وحدها بل فى سائر بلادهم الأخرى » ويتماشى هذا فى الواقع مع حقائق التاريخ التى شهدت بالحرية الدينية « النسبية » ، التى تمتع بها غير المسلمين فى الدولة العثمانية ، إذا قورنت بالصراع الدينى فى أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولكن ذلك لا يجعلنا نتناسى بعض التعديات التى وقعت على الأقباط آنذاك لاسيما فيما يتعلق بالغرامات المادية التى فرضها العثمانيون على الكنائس أحياناً ، أو حتى فى الاستيلاء على بعض الكنائس .

على أية حال نحن أمام رحلة تعتبر من أهم الرحلات الغربية لمصر فى ذلك العصر ، وأمام رحالة ترك اسماً ذائع الصيت رغم وفاته فى سن مبكرة ، وأمام ترجمة دقيقة ومقدمة وافية لابد أن نشكر عليها المترجم .

محمد عفيفى

مـــــدخل

تعود معرفتى بالمؤلِّف إلى أوائل الثمانينيّات من القرن العشرين، عندما اطّلعت على كُتُبه، وتجدّد الاهتمام به فى أوائل التسعينيّات من القرن العشرين، عندما حصلت على صورة لأوّل مؤلَّف له (وهو الذى أترجمه)، ومنذ ذلك الوقت، وأنا أحلم بتقديم ترجمة لهذا الكتاب.

ولذا أشكر المجلس الأعلى للثقافة لقبوله طباعة هذه الترجمة، أشكر الدكتور جابر عصفور أمين المجلس الأعلى، والدكتور عماد أبو غازى المشرف على اللجان الثقافيّة، والدكتورة شهرت العالم منسّق المشروع القوميّ للترجمة، وأشكر الدكتور مجدى جرجس الذى قدّمنى للمجلس الأعلى للثقافة، وزوّدنى ببعض المراجع المفيدة، وأشكر دون أنزو لوكّيزى الذى زوّدنى بصورة للكتاب فى نصّه الأصلى، وفى صياغته الأولى الألمانيّة.

أشكر كذلك الأب منصور مستريح الذى راجع الترجمة من الناحية اللغويّة، والأب باقلى آڤا ڤينى (دير أبو فانا بالقرب من ملّوى)، والمهندس مدحت حلمى من أسيوط، اللذين قاما بقراءة الجزء الثالث من الكتاب الخاصّ بالأقباط، وأبديا بعض الملحوظات المفيدة، وأشكر البروفسور بيرونه الذى ساعدنى فى تفسير بعض الكلمات، ودون أنزو لوكّيزى، الذى ساعدنى فى ضبط أسماء بعض المدن الحبشيّة، والأب أوجو زانتّى الذى ساعدنى فى ضبط أسماء الشهور الحبشيّة، والبروفسور هاميلتُن الذى لفت نظرى إلى مصدر مهم .

وأشكر الأستاذ مايكل إدور، الذى قام بنسخ الجزء الأكبر من الكتاب على الكُمْبيوتر، وكان يناقشنى فى بعض الألفاظ، وكنت أحيانًا آخذ بوجهة نظره، والأستاذ

سمير سامي، الذى قام بتحويل النصّ مِن برنامج نايسس إلى برنامج الناشر الصحفيّ، وأشكر أخيراً الأُستاذ الدكتور محمّد عفيفى لقراءة الكتاب وتقديمه.

بعد الشكر، هناك اعتذار، أعتذر مقدَّمًا عن بعض الألفاظ والآراء التى يوردها المؤلِّف، وتمثِّل إهانة للبعض، حيث اقتضت الأمانة العلميّة ترجمة الكتاب بالكامل، كما هو، لمعرفة فكر المؤلِّف، الذى يمثِّل عقليّة ذلك الوقت. المترجم غير مسؤول عن هذه الألفاظ والآراء، ولا يشارك بالضرورة فيها، ومع ذلك فقد رأى المترجم ضرورة حذف جزء مِن فقرة فى الجزء الثالث.

ترجمة الكتاب لم تكن هيِّنة، ولم أجد مساعدة كبيرة فى المراجع الخاصّة بالدولة العثمانيّة؛ لأنّ هذه الكُتُب غير مزوّدة بفهارس أبجديّة، لقد استفدت قليلاً مِن مرجعين هما: «تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى مِن الدخيل» للدكتور أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٧٩، و«معجم الدولة العثمانيّة» للدكتور حسين مجيب المصرى، القاهرة ٢٠٠٤. واستفدت مِن الفهارس الأبجديّة المفصّلة لمجموعة كُتُب الرحّالة الغربيين المنشورة مِن المعهد الفرنسيّ للآثار الشرقيّة بالقاهرة.

مِن الناحية المنهجيّة، أوردت بين قوسين مربّعَين [ ] رقم صفحة الأصل، وهذا سهّل عمليّة المراجعة، وسمح بإعداد فهارس أبجديّة تصلح للأصل وللترجمة. يورد المؤلِّف كثيراً مِن الألفاظ العربيّة والتركيّة، وهى مطبوعة بشكل مائل *italic*، أوردت هذه الكلمات بين علامَتى تنصيص عادى: « »، أما الكلمات التى لم ترد بالمائل فقد وضعتها بين علامَتى تنصيص مرتفع: " ، وللأمانة العلميّة أوردت أخطاء المؤلِّف كما هى، سواء فى المعلومات، أم فى كتابة أسماء بعض المدن، وقمت بين قوسين مربّعين: [ ]، بكتابة المعلومة والاسم الصحيحين، ولم أتوصّل إلى ضبط جميع الألفاظ التركيّة.

بعد هذا المدخل، تأتى المقدّمة الخاصّة بحياة المؤلِّف وكتاباته، وأبدؤها بذكر عناوين كُتُبه، والمراجع الخاصّة بحياته، التى استطعت الاطّلاع عليها. ثمّ ترد الترجمة،

وبعدها مجموعة مِن الفهارس الأبجديّة: الأعلام والجماعات العرقيّة والدينيّة، الألقاب والوظائف، الأماكن والآثار، النقود، الشهور، الأحداث المهمة، الأحداث الخاصّة بالمؤلّف، الكُتُب والمؤلّفين المذكورين، وأرقام الصفحات الواردة هي أرقام صفحات الأصل.

مقدمـــة

حياة ڤَنْسلب ومؤلَّفاته

المؤلَّفات المخطوطة والمنشورة

1. Paris, Bibliothèque Nationale de France, Manuscrit Italien 435. *Giornale nel quale egli racconta e escritto le sue osservationi (1675)*.

2. Paris, Bibliothèque Nationale de France, acq. fr. 4193. *Voyage du Caire à Chio [Chios] et de Chio [Chios] à Constantinople et aux environs par le Père J. M. Vansleb ou Wansleben, fait de 1673 à 1676.*

3. *Relazione dello stato presente dell'Egitto. Nella quale si dà esattissimo ragguaglio delle cose Naturali del paese: del Governo Politico, che vi è: Della Religione de' Copti: Dell'Economia delli Egizij, e delle magnifiche Fabriche, che ancor'hoggidi vi si ci veggono.* Scritta dal Signore Gio. Michele Vanslebio, d'Erffordia, hora Religioso dell'Ordine de' Predicatori; E dedicata all'Altezza Sereniss. Cosmo de Medicis, Gran Duca di Toscana, In Parigi, Con Privilegio del Rè Cristianissimo, 1671, 285 p.

4. *Johann Michael Wansleb's bisher ungedrukte Beschreibung von Aegypten im Jahr 1664.* (ed. J.-D. Reuss), H. E. G. Paulus, *Sammlung der merkwürdigsten Reisen in der Orient*, vol. 3, Jena, 1794, p. 1-122.

5. *Nouvelle Relation En forme de Journal, d'un voyage fait en Egypte. Par le P. Vansleb, R.D. En 1672.* & 1673. A Paris, Avec Privilege du Roy, 1677, 15+423+17 p.

6. *The Present State of Egypt; Or, A new Relation of a Late Voyage into that Kingdom. Performed in the Years 1672. and 1673. By F. Vansleb, R.D. Wherein you*

have an exact and true Account of many Rare and Wonderful Particulars of that Ancient Kingdom. Englished by M.D. B.D., London, 1678 (1972), 6+253+5 p.

7. *Neue Beschreibung einer Reise nach Aegypten in den Jahren 1672. 1673. in Form eines Tagesbuchs verfasst von P. Wansleb. Nach der französischen Ausgabe Paris 1677 kl. S. 423 S.*, übersetzt, H. E. G. Paulus, *Sammlung der merkwürdigsten Reisen in der Orient*, vol. 3, Jena, 1794, p. 123-414.

8. *Histoire de l'Eglise d'Alexandrie, fondée par S. Marc, Que nous appelons celle des Jacobites d'Egypte. Ecrite au Caire même, en 1672. & 1673. Par le P. J. M. Vansleb, Dominicain*, A Paris, Avec Privilége et Approbation, 1678, 32+348+23 p.

9. *Missions Archéologiques Françaises en Orient aux XVIIe et XVIIIe siècles.* Documents publiés par Henri Omont, première partie, Paris, 1902, p. 54-174: Chapitre III. Voyages du Père Wansleben en Égypte, en Asie Mineure et à Constantinople (1671-1675).

10. *Missions Archéologiques Françaises en Orient aux XVIIe et XVIIIe siècles.* Documents publiés par Henri Omont, seconde partie, Paris, 1902, p. 879-951: VII. Liste des manuscrits, médailles, etc., envoyés par le P. Wansleben pendant les années 1671-1675.

المراجع

أذكر هنا المراجع التى اطّلعت عليها فقط، حسب التسلسل الزمنىّ

- Abbé A. Pougeois, *Vie et voyages de Vansleb savant orientaliste et voyageur*, Paris, 1869, 329 p.

-Viktor Hantzsch, "Wansleben", *Allgemeine Deutsche Biographie*, Einundvierzigster Band, Berlin, 1971 (Neudruk der 1. Auflage von 1896),p. 159-162.

- G. Graf, "Wansleben", *Lexikon für Theologie und Kirche*, zehnter Band, Freiburg/Br., 1938, p. 750-751.

- Béatrice Boulad, "Recherches faites à la Bibliothèque Nationale sur les manuscrits rapportés de l'Orient", La *Revue du Caire 11* (1948), p. 372- 378

(375-376).

- L. Keimer, "Quelques détails oubliés ou inconnus sur la vie et les publications de certains voyageurs européens venus en Égypte pendant les derniers siècles", *Bulletin de l'Institut d'Égypte 31* (1948-1949), p. 165-170.

- Jean-Marie Carré, *Voyageurs et écrivains français en Égypte*, tome premier, Le Caire, 1956, p. 29-32.

- Oleg V. Volkoff, *À la recherche des manuscrits en Égypte*, Le Caire, 1967, p. 65-80: chapitre IX. Le Père Vansleb.

- Christine Chaillot, "L'icône, sa vénération, son usage d'après des récits de Wansleben au XVIIe siècle", *Le Monde Copte* 18 (1990), p. 81-88.

- D[etlef] M[üller], "Vansleb, Jean-Michel", Dictionnaire de l'Orient Chrétien. J. Assfalg, P. Krüger (ed.), Turnhout, 1991, p. 462-463.

- M. Martin, "Vansleb", *The Coptic Encyclopedia* (New York, 1991), vol. 7, p. 2299.

- Bernard Hauviller, "Michel Vansleb, 1635-1679", *Les Amis de Bourron-Marlotte* 38 (1997), p. 14; *La Revue de Moret et de sa Région* 144 (1997), p. 54-55.

- Maurice Martin, "Le journal de Vansleb en Égypte", Bulletin de l'Institut *Français d'Archéologie Orientale 97* (1997), p. 181-191.

- Gilbert-Robert Delahaye, Cédric Meurice, "Autour de la perruque de l'orientaliste Vansleb", *Les Amis de Bourron-Marlotte* n. 43 (2001), p. 37-39.

- Gilbert-Robert Delahaye, "Johann Michael Vansleb, 1635-1679, Voyageur en Egypte et en Orient pour le compte de la Bibliothèque royale", *Le Monde Copte* 33 (2003), p. 113-122 (avec bibliographie).

طرأت على اسم كاتبنا (وندعوه فى هذه المقدّمة «فَنْسلِب») صيَغ مختلفة، فهو فى الأصل الألمانىّ Wansleben، وقد اخْتُصِر إلى Wansleb، وقد كتبه المؤلّف ذاته بالإيطاليّة Vanslebio (كما يرد فى الكتاب الذى أترجمه، وقد حافظت فى العنوان على صيغة الاسم)، وباللاتينيّة Vanslebius، وكذلك de Wanslebiis، وعندما انتقل المؤلّف إلى فرنسا صار اسمه Vansleb (كما يرد فى الكتابين التاليين له، وهو الاسم الذى اشتهر به)، وفى المراسلات التى كتبها غيره عنه ورد بصيغة Vanslebe، أمّا اسمه الأوّل فهو فى الألمانيّة يوهَنّ ميكائيل، وفى الإيطاليّة جوفَنّى ميكيله، وفى الفرنسيّة جان ميشيل.

وُلد فَنْسلِب، فى الأوّل من نوفمبر سنة ١٦٣٥، لواعظ، أو راعٍ لوثرانىّ (رجل دين إنجيلىّ، أو بروتستنتى)، اسمه يوهَنّ فَنْسليبن، ولا يُعْرَف إنْ كان لفَنْسلِب إخوة أو أخوات. مسقط رأسه مدينة زومِرْدا، بقرب إرْفورت فى مقاطعة تورينجا فى ألمانيا.

درس فَنْسلِب أوّلاً فى مدرسة لاتينيّة فى مسقط رأسه، ثمّ فى جامعة إرْفورت أعرق جامعات ألمانيا، وكانت قد تأسّست سنة ١٣٩٢. فى ذلك الوقت أظهر الشاب اهتمامًا بالعلوم الطبيعيّة، ثمّ ذهب لدراسة الفلسفة والعلوم الدينيّة فى جامعة كينيسبرج، وتخرّج منها نحو سنة ١٦٥٦، ونلاحظ أنّ دراسة فَنْسلِب للعلوم الطبيعيّة والعلوم الدينيّة أفادته فى رحلاته.

بدأ فَنْسلِب عمله كمُرَبٍ لابن أحد الأُسر النبيلة فى مدينة مَرينَفرْدَر، ثمّ دخل سلك الجنديّة فى الجيش البروسىّ، واشترك فى الحرب ضدّ بولندا سنة ١٦٥٧. انخراط فَنْسلِب فى الجنديّة، وتدرّبه على استعمال السلاح أفاده فى رحلته. بعد نهاية الحرب عمل فى التجارة، وسافر إلى هولندا، ويبدو أنّه لم ينجح فيها، فعاد إلى إرْفورت، وفيها تقابل مع العلاّمة هيوب (أيّوب) لودُلف (١٦٢٤-١٧٠٤)، الذى كان يعرف خمسًا وعشرين لغة، فتتلمذ له، ودرس على يده اللغة الحبشيّة ولغات شرقيّة أُخرى. وفى سنة ١٦٦١ أرسل المعلّمُ تلميذَه إلى لندن للعناية بطباعة قاموسه الحبشىّ. هناك تعرَّف فَنْسلِب على علاّمة آخر هو أدْموند كَسْتِل أُستاذ اللغة العربيّة، فصار معاونًا له،

وساهم فى طباعة الكتاب المقدّس المتعدِّد اللغات. بعد غياب ثلاث سنوات، عاد ڤَنْسلِب إلى إرْفورت، حيث كانت تنتظره مهمّة أكبر وأخطر ، فقد رشّحه لودُلف للأمير أرْنِست التقىّ، دوق سكسونيا، للذهاب إلى الحبشة، لحمل ملكها وشعبها على قبول حركة الإصلاح أو البروتستنتيّة، وبالتالى إبعاد الحبشة عن أىّ تأثير كاثوليكىّ جديد محتمل.

سافر ڤَنْسلِب يوم ١٥ يونيو سنة ١٦٦٣، ولم يصل إلى القاهرة إلاّ فى يناير ١٦٦٤. أقام فى مصر لمدّة سنة، تعرّف فيها على البلد، واقتنى بعض المخطوطات الحبشيّة والعربيّة، ونتيجة لمقابلات عديدة مع بطريرك الأقباط، الأنبا متّى الرابع المعروف بالميرىّ (١٦٥٨-١٦٧٥)، البطريرك الثانى بعد المائة فى العدد، صرف ڤَنْسلِب النظر عن الذهاب إلى الحبشة، بل استطاع البطريرك تشكيكه فى عقيدته البروتستنتيّة. كثمرة لإقامة ڤَنْسلِب فى مصر، للمرّة الأولى، لدينا كتابه الذى أترجمه، ومنه نعرف تحركّاته، فقد زار الأهرامات، والأزهر، وأماكن أُخرى فى القاهرة، وفى الدلتا، زار دير القدّيسة دميانة (جميانة)، وفى الصعيد وصل إلى مَنْفَلوط، وزار دير المحرّق ودير الأحباش بالقرب منه، وذهب إلى جرْجا، وفى طريق العودة مرض فى منفلوط، ومنها عاد إلى القاهرة. يمدح ڤَنْسلِب كثيراً محبّة أهل مَنْفَلوط له وعنايتهم به، فى أثناء مرضه (فى الرحلة الثانية لقى المتاعب من أهل مَنْفَلوط المسيحيين). لم يذهب ڤَنْسلِب جنوبيًا أبعد من جرْجا، كان يسمع عن إسْنا، وقد خلط بينها وبين أسْوان (فى فهرس تاريخىّ نحاول تتبُّع تحرُّكات ڤَنْسلِب).

غادر ڤَنْسلِب الإسكندريّة، لا إلى ألمانيا بلده (ولن يعود إليها أبداً)، بل إلى إيطاليا، ونزل يوم ١٦ فبراير ١٦٦٥ فى ميناء ليڤُرنو، ومن هناك توجّه إلى فلورنسا، حيث حظى بمعرفة فِرْدينانْدو الثانى جران دوق المدينة، الذى أهدى إلى ابنه كُزْمو الثالث كتابه الأوّل عن مصر (وربّما ظهرت هناك الطبعة الأولى من كتابه). وأخيراً حطّ ڤَنْسلِب رحاله فى روما، ومن هناك كتب إلى أرْنِسْت التقىّ يخبره بعدم تحقيق رغبته، وأرسل إليه تقريراً أوّل باللغة الألمانيّة عن الرحلة (وقد تابع كتابته وهو فى فلورنسا)، وهو التقرير الذى نُشِر فى وقت لاحق فى ڤِيِنا، سنة ١٧٩٤. فى روما هجر

ڤَنْسْلِب البروتستنتيّة، واعتنق الكثلكة، وفى سنة ١٦٦٦ انضوى تحت لواء الرهبنة الدومِنيكانيّة، فى دير لامينرْڤا بالقرب مِن لاروتُنْدا، وهناك تعرّف عن كثب على العلاّمة اليسوعيّ الألمانىّ أثناسيوس كيرْشَر (ناشر مجموعة مِن المقدّمات والسلالم القبطيّة، وكان قد بدأ العمل فيها العلاّمة الفرنسيسكانىّ توماسو دا أوبشينى). هذا التحوُّل فى حياة صاحبنا أغضب أُستاذه القديم، فقام بحملة شعواء ضدّه، ربّما كانت هى سبب نكبة ڤَنْسْلِب فى آخر الأمر.

فى سنة ١٦٧٠، عن طريق واسطة العلاّمة فْرَنْسوا ده بوسْكيه (١٦٠٥-١٦٧٦)، رئيس أساقفة مُنبيليه، اسْتُدعى ڤَنْسْلِب إلى باريس لمهمّة جديدة، وهى السفر مرّة أُخرى إلى مصر والحبشة، ولكن لا لهدف دينىّ أو سياسىّ، بل علمىّ بحت، وهو شراء مخطوطات عربيّة وحبشيّة، وشرقيّة أُخرى، وميداليات لمكتبة الملك (المكتبة الوطنيّة فيما بعد).

كلّف كولْبير، وزير الملك لويس الرابع عشر (١٦٣٨-١٧١٥، مَلَك ١٦٦١) أمين مكتبة الملك، بيير ده كَرْكاڤىّ بإعداد ورقة التعليمات لڤَنْسْلِب (منشورة فى بوجوا، ص ٢١-٢٧؛ أومون، جـ ١، ص ٥٨-٦٣). النصّ مفصّل وعبارة عن بعثة أثريّة وعلميّة متكاملة (يمكن القول إنّها تشبه بشكل مُصَغّر بعثة الحملة الفرنسيّة، التى أتحفتنا بـ«وصف مصر») يحوى قوائم لمكتبات مدن وأشخاص بها مخطوطات يجب محاولة شرائها، ولكن ليس هناك تحديد للمقصود بالميداليات، وقد تشير إلى العملات القديمة، والرسومات، والأيقونات، ولم يجد ڤَنْسْلِب الكثير منها. غير أنّ تعليمات كَرْكاڤىّ لم تشر إلى الحبشة، ممّا دفع كولْبير لإضافة حاشية عليها، وقد خوّلت التعليمات ڤَنْسْلِب أنْ يتّخذ الصفة التى تتّفق مع الظروف: تاجر، أو سائح، أو رجل دين، أو غير ذلك، وأنْ يرتدى مِن الملابس ما يسهّل مهمّته، بدون التقيُّد بزى معيّن، وقد تمّ تحذيره مِن التدخُّل فى السياسة.

فى أثناء إقامة ڤَنْسْلِب فى باريس طبع كتابه الأوّل (الذى أترجمه) عن مصر، وتحمل المقدّمة تاريخ ٢٠ مارس ١٦٧١، وقد تمّت طباعة الكتاب يوم ٢٥ مارس ١٦٧١

يوم ٢٠ مايو سنة ١٦٧١ أبحر ڤَنْسلِب من مَرْسيليا، ومنها بدأ يكتب رسائله العديدة إلى كَرْكاڤيّ، وقد مرّ أوّلاً على مالطا، ثمّ على قُبْرُص، حيث مرض (وسيرافقه هذا المرض على مدى طويل)، لكنّه غادرها يوم ٢٦ يونيو إلى طرابلس الشرق، حيث اشتدّ عليه المرض، وأشرف على الموت، وبعد أنْ تعافى قليلاً سافر إلى حلب، التى وافاها يوم ١٣ سبتمبر، وبدأ فى البحث عن الكُتُب والميداليات. يوم ١٧ ديسمبر سافر إلى دمشق، مارًا بمعرّة النعمان، وحِمْص، وقد واجه صعوبات أينما حلّ، بسبب عدم معرفة قوانين مرور الأجانب بتلك الأراضى، ووصل إلى دمشق يوم ٢٧ ديسمبر، حيث نزل ضيفًا على رهبان الأراضى المقدّسة. فى أواخر يناير سنة ١٦٧٢ غادر ڤَنْسلِب دمشق إلى صيدا، حيث بقى ستّة أسابيع، ومنها أبحر إلى مصر.

بعد رحلة مضطربة، يوم ١٨ مارس سنة ١٦٧٢، وافى ڤَنْسلِب ميناء دمياط، ومنذ هذا اليوم بدأ صاحبنا إقامته الثانية فى مصر، التى ستمتد إلى نحو سنتين. يوم الخميس المقدّس ١٤ أبريل، وطأت قدما ڤَنْسلِب تراب مدينة القاهرة للمرّة الثانية.

بعد راحة قصيرة، ومقابلة الباشا لطلب حمايته، قام ڤَنْسلِب بزيارة ثانية متأنّية للأهرامات على مدى ثلاث مرّات، الأُولى يوم ٢٧ أبريل برفقة القنصل الفرنسىّ وآخرين، والثانية يوم ٢٨ ديسمبر، والثالثة يوم ٢٦ يونيو سنة ١٦٧٣، حيث زار سقّارة كذلك. فى القاهرة تقابل ڤَنْسلِب مع رئيس أساقفة دير القدّيسة كاترين فى سيناء، لكن رئيس الأساقفة أقنعه بعدم المخاطرة فى زيارة الدير.

كان ڤَنْسلِب، فى إقامته الأُولى فى القاهرة، قد زار دير القدّيسة دميانة (جميانة) فى صحارى بلقاس بالقرب مِن دمياط، وفى هذه الإقامة الثانية، توجّه لزيارة الدير يوم ٩ مايو سنة ١٦٧٢، وقد وصف مشاهداته وانطباعاته عن المولد الذى يُقام فى الدير، فى رسالة إلى كَرْكاڤيّ، تحمل تاريخ ٢٧ يونيو (منشورة فى أومون، جـ ١، ص ٩١-٩٧، ومترجمة إلى الفرنسيّة فى بوجوا، ص ٥٦-٦٥، ودخلت كذلك فى الكتاب الثانى). وقد استغرقت الرحلة ١١ يومًا. تقابل ڤَنْسلِب، لدى عودته، مع الأنبا متّى الميرىّ؛ لكى يطلب منه رسالة توصية لدير الأنبا مقار.

يوم ٣١ مايو أبحر ڤَنْسلِب إلى رشيد بصحبة خادم للقنصل الفرنسىّ اسمه ليونَرْدو، وهو رسّام ماهر، قام بإعداد بعض اللوحات لڤَنْسلِب (انظر مقال موريس مرتان)، وقد حظى باستقبال حَسَن من قِبَل نائب القنصل الفرنسيّ، ولكن لم يستطع دراسة مصبّ نهر النيل (البوغاز) هناك. يوم ١٤ يونيو توجّه صوب الإسكندريّة على صهوة حمار (وهو، وغيره من الرحّالة الغربيين يمدحون كثيراً الحمير المصريّة)، وهناك زار القمُّص يوحنّا راعى كنيسة القدّيس مرقُس، وكان قد تعرّف عليه فى إقامته الأولى. يوم ١٩ يونيو زار ملاّحات السيِّد الأعظم (يرد هذا التعبير كثيراً فى كتابات ڤَنْسلِب، ويُقْصَد به سلاطين آل عثمان فى القسطنطينيّة، ولا يستخدم ڤَنْسلِب أبداً تعبير «الباب العالي»)، واعتبره أفضل ملح فى العالم، ثمّ زار مسلّتَى كليوبتْرا، ويوم ٢١ يونيو شاهد عمود بُمْبيوس، وكان قَبل ثمانى سنوات قد شاهده معتدلاً، ولكنّه لاحظ هذه المرّة انحرافه، وهو يعزو السبب إلى حفر العرب أسفله، بحثًا عن الكنوز (وهى تهمة ستُوجّه أيضًا إلى ڤَنْسلِب نفسه)، وزار كذلك كهوف المقابر القديمة، ولعلّ المقصود بها مقابر كوم الشقافة، ثمّ عاد يوم ٢٩ يونيو إلى رشيد عن طريق البحر هذه المرّة.

وبعد يوم من وصوله، عزم على التوجّه إلى دير الأنبا مقار، وفى أثناء إبحاره إلى مدينة طرانة اضطرّ لاستخدام السلاح للدفاع عن نفسه، فى طرانة حلّ ڤَنْسلِب ضيفًا على نجّار، وهو المسيحىّ الوحيد فى القرية، ولكنّه تعرّض لتهديد كاشف المنطقة، الذى ظنّه شخصًا غنيًا، أو قنصلاً متخفّيًا، وفى آخر لحظة استطاع أنْ ينجو بجلده، ويهرب إلى القاهرة، مودّعًا إلى الأبد حلم زيارة أديرة وادى النطرون. فى طريق العودة زار كنائس الجيزة وأديرتها، ووصل إلى القاهرة يوم ٩ يوليو.

فى الإقامة الأولى لم يستطع ڤَنْسلِب زيارة منطقة المطريّة؛ لأنّ الاقتراب منها كان محظوراً على الأجانب، ولكن فى هذه الإقامة الثانية استطاع مشاهدة المنطقة، وهو يعتبر لفظ «المطريّة» مكوّنًا من مقطعَين «ميّه» و«طريّة»، وقد أخذ هذا التفسير عن سكّان المنطقة، إشارةً إلى بئر الماء هناك. وعن شجرة العذراء، يخبر الرحّالة أنّها يبست وسقطت سنة ١٦٥٦، وأنّ الآباء الفرنسيسكان التابعين لحراسة الأراضى

المقدّسة يحتفظون فى كنيستهم بفرع منها كذخيرة، وزار كذلك مسلّة هليوبوليس. يوم ١٨ يوليو حضر ڤَنْسلِب صلاة القدّاس فى كنيسة دير الملاك.

يوم ٢١ يوليو توجّه ڤَنْسلِب لزيارة الفيوم ونواحيها كفيدمين وسنُّورِس، وتعرّف على أُسقفها، الأنبا ميخائيل، وكان يريد زيارة قصر قارون، أو قصر التيه «لابيرِنْت»، الذى كان يضمّ ٣٦٥ حجرة، لكن لم يستطع بسبب الخوف مِن دخوله، وعدم معرفة الخروج منه. بعد ذلك زار هرم هوّارة، ويتحدّث عن هرم اللاهون، بدون أنْ يكون قد شاهده. زار أيضًا دير الخشبة بعد إقامة ٢٦ يومًا فى منطقة الفيوم، وكان يودّ إكمال رحلته إلى الصعيد، ولكن بداية فيضان النيل أجبرته على العودة إلى القاهرة، يوم ١٧ أغسطُس.

وصل ڤَنْسلِب إلى القاهرة فى وقت فتح، أو قطع الخليج، ممّا دفعه للعودة إلى الموضوع، الذى كان قد ذكره فى كتابه الأوّل، وهنا يصحِّح معلومة كان قد أوردها، وهى أنّ قَطْع الخليج مناط بصوباشى القاهرة فقط، لا بالدور: مرّة على المسلمين، ومرّة على الأقباط، ومرّة على اليهود، كما كان قد أخبر فى كتابه الأوّل.

فى تلك الأثناء، بدأ ڤَنْسلِب يكتب «تاريخ كنيسة الإسكندريّة»، وسيتابع هذا العمل فى القسطنطينيّة، وسيكون هذا كتابه الثالث المطبوع. فى القاهرة زار مجرى العيون (كان قد تحدّث عنه فى كتابه الأوّل)، وكلّما سنحت الفرصة كان يزور صديقه البطريرك القبطىّ، الأنبا متّى الرابع، ولم يتوقّف الرحالة عن البحث عن الكُتُب وشراء ما يمكنه، سواء الكُتُب الإسلاميّة، أو المسيحيّة، أو كُتُب السحر، وكان يرسلها أولاً بأوّل إلى مكتبة الملك.

يوم ٢٦ سبتمبر بدأ ڤَنْسلِب رحلة محفوفة بالخطر إلى دير الأنبا أنطونيوس (دير الأنبا بولا كان فى ذلك الوقت مهجوراً مِن الرهبان، ويسكنه البدو الذين احتلّوه)، وكادت هذه الرحلة تودى بحياته، لكنّه استطاع الوصول إلى الدير، والعودة منه سالمًا إلى القاهرة يوم ٢٣ أكتوبر بفضل شجاعته، ولكن بدون أنْ يتمكّن مِن شراء أىّ شىء مِن الدير.

بداية العام الجديد حملت إلى ڤَنْسلِب خبراً غير سار: يوم ٢٦ يناير سنة ١٦٧٣ تمّ إنهاء خدمة صديقه القنصل الفرنسيّ، السيّد ده تِيجر. والقنصل الجديد لم يظهر الصداقة نفسها لڤَنْسلِب.

يوم ٢٤ فبراير ١٦٧٣ أبحر ڤَنْسلِب إلى الصعيد، بهدف الوصول حتّى طيبة لمشاهدة آثارها العظيمة، وما بعدها حتّى إسنا، نزل أوّلاً فى مَنْفَلوط، التى رغم كثرة عدد المسيحيين فيها، لم تكن بها كنيسة. ومِن هناك توجّه إلى أسيوط، التى كانت تضمّ ٥٠٠ رأس خراجى (البالغين الذين يدفعون الجزية) مِن المسيحيين، وزار أُسقفها الأنبا يؤنّس، وتعرّف على المعلّم أثناسيوس، واعتبره آخر شخص يعرف اللغة القبطيّة فى مصر، ولم يستفد منه شيئًا؛ لأنّه كان أصمّ، وتجاوز الثمانين مِن العمر. وفى أسيوط زوّد الأسقفُ ڤَنْسلِبَ بركوبة طويلة الأُذنَين لزيارة الدير الأبيض والدير الأحمر فى سوهاج، ولكن بالقرب مِن طهطا قام «سيمان» (أحد أنواع جنود الانكشاريّة) بالاستيلاء بالقوّة على ركوبة ڤَنْسلِب، الذى اضطرّ للعودة إلى الأُسقف الذى زوّده بركوبة جديدة، وبعد زيارة الديرَين عاد الرحّالة إلى طهطا، وزار أديرة المناطق القريبة المهجورة، ومنها دير الأنبا سويرُس الأنطاكىّ فى درُنكة، وكان به فى الماضى ٣٦٠ راهبًا، وزار كذلك مغاور المنطقة، وهى عديدة هناك. بعد ذلك ودّع ڤَنْسلِب صديقه الأُسقف، وعاد إلى مَنْفَلوط، حيث كانت تنتظره أخبار غير سارّة؛ كان أهل المدينة المسيحيون قد شكوه للكاشف أنّه جاء للبحث عن كنوز مصر، ولذا بدلاً مِن متابعة الرحلة إلى جرْجا فى الجنوب، اضطرّ للهرب، والتوجّه شمالاً إلى ملّوى.

تضمّ مدينة ملّوى ٧٠٠ رأس خراجى مِن المسيحيين، ولهم كنيسة كان راعيها القمُّص نصرالله، يمدحه ڤَنْسلِب كثيرًا كأفضل إنسان مسيحىّ قابله فى مصر، وقد ارتبط بصداقة معه، ومِن ملّوى زار صاحبنا دير أبو حنّس، وأقام فيه تسعة أيّام، وانطلاقًا منه زار الأديرة والمغاور القريبة. يوم ٣ أبريل شاهد آثار أنصنا (أنتينوه القديمة، قرية الشيخ عبادة)، وظنّ أنّ البعض يدعوها طيبة، وشاهد كذلك آثار الأشمونين. ثمّ عاد ڤَنْسلِب إلى ملّوى، ومنها إلى المنيا، وبسبب المخاطر العديدة

والمتاعب الصحيّة، صرف صاحبنا النظر عن السفر حتّى إسنا، لكن اطّلع على آثارها عن طريق نصّ رحلة قام بها الراهب الفرنسيسكانيّ الكبّوتشينيّ بورته.

يوم ٢٤ أبريل ١٦٧٣ عاد ڤَنْسلِب إلى القاهرة، ولم يفارقها لأكثر من خمسة أشهر. ولم يصرف نظره عن مهمّته الأساسيّة وهي شراء الكُتُب، وكان حتّى ذلك الوقت قد أرسل ٣٣٤ مخطوطًا عربيًا، وتركيًا، وفارسيًا، وحبشيًا، إلى مكتبة الملك. في ذلك الوقت شعر صاحبنا أنّ مهمّته في مصر قد انتهت، لاسيّما بعد المعاملة السيئة التي لقيها من القنصل الجديد، الذي أجبره على دَفْع الوجبات التي تناولها في القنصليّة، فعوّل على السفر إلى القسطنطينيّة، بهدف متابعة البحث عن كُتُب، ومحاولة الحصول على فرمان من السيِّد الأعظم (الباب العالي) للسفر عبر الحدود المصريّة (بدون خطر) إلى الحبشة.

من رشيد سافر ڤَنْسلِب، يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٦٧٣، على متن شايقة (نوع من السفن)، حتّى رودُس كان السفر مريحًا، لكن بعد ذلك بدأت الصعوبات والأخطار. وبعد رحلة تشبه «الأوديسّيه»، وصل إلى جزيرة كيوس في تركيا يوم ٢٥ نوڤمبر، وبقي فيها فترة طويلة، حتّى ٢٧ يناير ١٦٧٤، ثمّ غادرها إلى أزمير، حيث وصل في الأوّل من فبراير. هناك تلقّى معاملة سيئة للغاية من قنصلها الفرنسيّ، فطلب حماية السفير الإنجليزيّ، العدوّ اللدود للقنصل الفرنسيّ. ولدى وصوله إلى القسطنطينيّة، وفي غياب القنصل، واجه الصعوبات ذاتها، وشعر بالمهانة؛ لأنّه جرى تذكيره بأنّه ألمانيّ، لا فرنسيّ، مع أنّه كان يحمل توصيات من ملك فرنسا، ويعتبر نفسه أحد رعاياه.

بدأ ڤَنْسلِب يشكو من عدم وصول مستحقّاته الماليّة، وراح يعاني من الفاقة، لكنّه حاول الاستفادة من الوقت في زيارة المعالم المشهورة في تركيا، وفي دراسة اللغتين التركيّة واليونانيّة. يوم ٤ سبتمبر أبحر من جديد إلى جزيرة كيوس، حيث وصل يوم ٩ سبتمبر، وهناك تعرّض لمشكلة لا يحدّد هو طبيعتها، ولكنّها كانت من ضمن قائمة التُّهَم التي وجّهها إليه كولْبير لاحقًا. بعد ذلك عاد الرحّالة إلى القسطنطينيّة، ووصلها

يوم ٢٨ أكتوبر ١٦٧٤، ومِن هناك راح يكتب إلى كَركافىّ، وإلى كولْبير نفسه يطلب تزويده بالمال اللازم لمعيشته ومتابعة مهمّته، وتذكّر هو المثل القائل: «فى اليسر، يكثر الأصدقاء الكذّابون، وفى العسر، يتخلّى عنك الجميع». فى أبريل ١٦٧٥ فقط وصله مبلغ زهيد.

فى أثناء ذلك بدأ يخطِّط للذهاب إلى بلاد فارس، ثمّ فكّر فى العودة إلى مصر، ومنها إلى الحبشة، وكان قد أعدّ العدّة للسفر برًا عن طريق سوريا، ودفع تكاليف الرحلة، وأخبر كولْبير بذلك، وبدا أنّ هذا الأخير قد وافق على ذلك، لكن فجأة وصلت تعليمات مِن كولْبير إلى القنصل، بتاريخ ٥ يناير سنة ١٦٧٦، تأمر قَنْسلِب بالعودة إلى باريس.

يوم ٢ يناير ١٦٧٦، وبدلاً مِن السفر برًا إلى حلب، ومنها إلى مصر للمرّة الثالثة، وجد قَنْسلِب نفسه مضطرًا للعودة إلى فرنسا، وقد وجد سفينة مبحرةً يوم ٩ يناير، ووصل إلى مدينة جنوا فى إيطاليا يوم ٢٠ فبراير، ومنها وافى ميناء طولون فى جنوب فرنسا يوم ٢٤ فبراير.

فى أثناء السفر كان قَنْسلِب يمنّى نفسه بمقابلة وديّة مع كولْبير؛ لكىْ يشرح له بالتفصيل كلّ ما واجهه، ولكى يكشف له بعض الأمور، التى لم يشأ الكتابة عنها مِن قبل، وكان أيضًا يحلم بنوع مِن المكافأة على أتعابه، كالحصول على وظيفة تليق بمكانته العلميّة.

فى طريق العودة إلى باريس أصيب الرحّالة بمرض فى عينَيه، أجبره على التوقُّف فى ليون، لمدّة خمسة أسابيع. يوم ٢٢ أبريل ١٦٧٦ وطئت قدما قَنْسلِب أرض باريس، بعد غياب دام خمس سنوات، وبدلاً مِن استقباله استقبال الفاتحين، أو أهل الفضل، وجد أبواب المدينة، ولنقل قلبها، ولاسيّما قلب كولْبير، موصدًا فى وجهه. بعد انتظار طويل قابله الوزير ببرود، ورفض استجابة طلباته، أو تزويده بأوامر جديدة. لم يفقد قَنْسلِب الأمل، وسعى إلى مقابلة أُخرى. فى أثناء ذلك أقام فى منزل بالإيجار،

ومِن ٢٩ أكتوبر انتقل للسكن كمستأجر، فى دير الدومنيكان فى باريس، وفى ذلك الوقت تخلّى عن زيّه التركىّ، وعاد إلى ارتداء زيّه الرهبانىّ، وممارسة حياته الكهنوتيّة. وبسبب تناقص الموارد الماليّة، بدأ يقترض المال، ويبيع بعض مخطوطاته الحبشيّة (مِن رحلته الأُولى) بثمن بخس، وبعد إلحاح قبل كولْبير مقابلته مِن جديد، لكن بدون أنْ يقدّم له أىّ شيء، أخيرًا وجّه فَنْسلِب المسكين استعطافًا إلى الوزير. كان يطلب، على الأقلّ، مستحقّاته الماليّة المتأخّرة، ومنحه إخلاء طرف، للعودة إلى ديره الأصلىّ فى روما. وأخيرًا جاءه الردّ على هيئة قائمة اتّهامات، لم يتأخّر هو فى الردّ عليها، وتفنيدها واحدةً واحدة. يبدو أنّ كولْبير كان ساخطًا عليه، بسبب شكاوى قناصل الشرق منه، وبسبب إخفاقه فى دخول الحبشة، ما أثار حفيظة كولْبير هو أنّ فَنْسلِب بدلاً مِن التوجّه جنوبًا إلى الحبشة، سافر شمالاً إلى القسطنطينيّة، فقد صاحبنا كلّ أمل فى الحصول على حقوقه، فبدأ يبحث عن مكان يأويه، بدون مقابل. قبل أوّلاً السكن فى بيت صديق فى الريف، بالقرب مِن باريس، ثمّ ذهب للإقامة فى كنيسة فى مكان يدعى بواه ليه روا.

ومِن يوم ١٧ سبتمبر ١٦٧٦ ذهب للإقامة فى كنيسة قرية بورّون بالقرب مِن فونْتِنْبلو، حيث استقبله راعى الكنيسة تِكْسييه، وفتح له، مع البيت، قلبه. منذ ذلك الوقت بدأ فَنْسلِب يمارس مهامه كمساعد للراعى، واعتنى بطباعة كتابه عن مصر (١٦٧٧)، وكتابه الآخر عن تاريخ الكنيسة القبطيّة (١٦٧٧)، لكن بدون أنْ يهديهما إلى كولْبير، أو إلى الملك، بل أهدى الكتاب الأوّل إلى أحد الكرادلة، والثانى إلى أحد الرهبان.

لم ينعم فَنْسلِب طويلاً بهذه الراحة الأرضيّة، بعد متاعب السفر ومخاطره، وبعد تنكُّر باريس له. يوم ١٢ يونيو ١٦٧٩ استُدْعى للراحة الأبدية، وله مِن العمر أربع وأربعون سنة لا غير.

هل مات فَنْسلِب على أثر وباء؟ أم هل مات بسبب راحة لم يكن يعهدها لسنوات؟ أو هل ربّما مات مقهورًا مِن معاملة سيئة لم يكن ينتظرها؟ اللّه أعلم. أجل لقد أخفق فَنْسلِب فى الذهاب إلى الحبشة مرّتين، ولكن هل كان بإمكانه الذهاب حقًّا؟

باريس لم تعترف بفضل ڤَنْسْلِب فى حياته، وقد أدخل إلى مكتبة ملكها (المكتبة الوطنيّة لاحقًا) عددًا كبيرًا جدًّا من المخطوطات العربيّة، والحبشيّة، والتركيّة، والفارسيّة، واليونانيّة، والسريانيّة، والعبريّة. يصل العدد حسب بوجوا (ص X) إلى ٥٠٠، لكن بحساب القوائم التى أرسلها ڤنْسْلِب (انظر أومون، جـ ٢، ص ٨٧٩-٨٩٦) يصل العدد إلى أكثر من ذلك، وهو حسب بياتريس بولاد (ص ٣٧٥) ٥٩١ مخطوطًا. وهو أكبر عدد دخل المكتبة على يد شخص واحد فى سنوات قليلة، وكان فى الغالب النواة الأولى لمجموعات المخطوطات الشرقيّة بالمكتبة ، من هذا العدد ٦٩ مخطوطًا عربيًا مسيحيًا كان البعض منها أساس نشرات ودراسات فى هذا المجال. كان ڤَنْسْلِب يعرف نحو عشر لغات (تصل بها كريستين شايوه [ص ٨١] إلى اثنتى عشرة)، وكان على دراية شبه تامّة بأحوال عدّة بلاد فى الشرق: مصر، وسوريا، وتركيا، واليونان، والحبشة (عن طريق معلّمه الأوّل)، ومع ذلك أبت باريس أنْ تستفيد من علمه وخبرته.

دُفِن ڤَنْسْلِب فى كنيسة القرية، إلاّ أنّ الستار لم يُسْدل على حياته.

هناك كتاب صدر عنه فى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، ولكن لم أستطع الاطّلاع عليه، عنوانه:

G. Vockerodt, *De J .M. Vanslebio*, Gotha, 1708.

بدأ الاهتمام بڤَنْسْلِب فى فرنسا، التى تنكّرت له، عندما اشترى شَمْبولْيون فيچياك (١٧٧٨-١٨٦٧)، أمين مكتبة فونْتِنْبْلو، الأخ الأكبر لچان فْرَنْسوا شَمْبولْيون [١٧٩٠-١٨٣٢] الشهير الذى حلّ رموز الهيروغليفيّة) إحدى المكتبات المعروضة للبيع، وكان من بينها مخطوط يخصّ ڤَنْسْلِب. فكتب، يوم ٤ أغسطُس سنة ١٨٥٦، إلى راعى كنيسة بورّون، الأبّيه بوجوا، طالبًا معلومات عن ڤَنْسْلِب أثناء إقامته فى كنيسة القرية، وحثّ الراعى على الكتابة عنه، عارضًا مساعدته فى بحثه. وسنة ١٨٥٩ جرى ترميم كنيسة بورّون، وتمّ اكتشاف قبر ڤَنْسْلِب، وبمساعدة من إمبراطور فرنسا، نابولْيون الثالث (١٨٠٨-١٨٧٣)، تمّ بناء قبر جديد له، وكان ذلك سنة ١٨٦١. وبعد سنوات

قليلة، سنة ١٨٦٩، صدر كتابٌ شامل عن حياة ڤَنْسلِب، بقلم الآبّيه بوجوا. الإكرام الذى لم ينعم به ڤَنْسلِب فى حياته، وجده بعد قرنين مِن وفاته، على يد اثنين مِن المعجبين به: شَمْبولْيون فيچياك، والآبّيه بوجوا.

كموجز لنشاط ڤَنْسلِب، لاسيّما فى مصر، نقول مع ڤُلْكوفّ (ص ٦٦): «كتاجر سابق، أتقن ڤَنْسلِب الفصال مع بائعى الكُتُب القديمة فى القاهرة؛ كمستشرق، اختار بعناية الكُتُب، التى كان يشتريها؛ كجندى، مسك البندقيّة بيد ثابتة لمقاومة الأتراك الغاشمين، وجعل أعداءه يهربون».

مؤلَّفات ڤَنْسلِب

لم يكتب ڤَنْسلِب الكثير، وكيف يتسنّى له ذلك، وقد مات فى سن الرابعة والأربعين. لو قُدِّر له العيش طويلاً، ووجد المكان المناسب له، لكان قد أتحفنا بالكثير، وقد أشار فى كتابه الأوّل إلى نشر بعض الكُتُب (انظر فهرس الكُتُب).

أوّل مؤلَّفات ڤَنْسلِب هو تقريره الأوّل عن مصر، وقد كتبه أوّلاً بلغته الأصليّة، الألمانيّة، وأرسله إلى دوق سكْسونيا، إرْنست التقىّ (انظر مخطوط جامعة چيتينجِن، تاريخ ٨٣٥؛ مذكور فى أومون، جـ ١، ص ٥٥)، وهذا هو الكتاب الذى نُشِر فى ڤِيِنَا، سنة ١٧٩٤ (انظر المؤلَّفات الرقم ٤)، والنصّ يختلف أحيانًا عن المخطوط، كما يؤكّد أومون). وقد أشار أدِلْبيرْجَر (انظر موقع http://www.hf.uib.no/smi/sa/2Urimellis.html) إلى هذه الطبعة بخصوص الحديث عن دارفور (ونشير إلى أنّه هناك المئات مِن المواقع الإلكترونيّة عن ڤَنْسلِب، يُدْخَل إليها بكتابة اسمه الفرنسىّ Vansleb؛ انظر كذلك R. S. O'Fahey, J. L. Spaulding, *Kingdoms of the Sudan*, London, 1974, p. 121). ثمّ أعاد ڤَنْسلِب النظر فى الكتاب، ونسّق بعض أجزائه، وأجرى إضافات، وحذف بعض المعلومات، وكتبه باللغة الإيطاليّة، ويعتقد ناشر النصّ الألمانىّ (انظر المقدّمة)، وأدِلْبيرْجَر أنّه نشره أوّلاً فى فلورنسا بإيطاليا، سنة ١٦٧٠، لكنّا لم نجد ذكرًا لهذه

الطبعة فى أىّ مرجع موثوق به، ولا فى فهارس أيّة مكتبة. الطبعة المتداولة هى طبعة باريس سنة ١٦٧١ (انظر المؤلَّفات الرقم ٣)، وهى الطبعة الرسميّة لكتاب قَنْسلب وقد أشرف عليها بنفسه، وإليها يشير فى كتاباته اللاحقة، وتُعَبِّر عن حالته وفكره فى ذلك الوقت، ككاثوليكىّ وراهب (وهى التى استند عليها فى الترجمة)، والطبعة نادرة، لم أعرف لها أيّة نسخة فى مصر، ولم يستخدمها أحد إلاّ كرستين شايو فى مقالها عن الأيقونات.

الكتاب الثانى، الذى وضعه قَنْسلب هو تقريره الجديد عن رحلته الثانية إلى مصر (انظر المؤلَّفات الرقم ٥)، وهو باللغة الفرنسيّة، ويعتمد فيه على الرسائل التى كان يكتبها أوّلاً بأوّل إلى كَرْكاشىّ، باللغة الإيطاليّة (انظر هنا أسفل)، وفى هذا الكتاب يعود المؤلِّف إلى بعض المواضيع التى كان قد عالجها فى الكتاب الأوّل، فيضيف عليها، ويصحِّح بعض المعلومات، وتغلب على الكتاب الصبغة الدينيّة المسيحيّة، وهو مصدر فى غاية الأهمّيّة لمعرفة حالة الكنائس والأديرة القبطيّة فى القرن السابع عشر (بعد معلومات أبى المكارم فى بداية القرن الثالث عشر، والمقريزىّ فى القرن الخامس عشر، وقبل معلومات على باشا مبارك فى «الخطط التوفيقيّة» فى القرن التاسع عشر). هذا الكتاب أقلّ ندرة مِن الأوّل، وأعرف له فى مصر عدّة نسخ: فى المعهد الفرنسىّ للآثار الشرقيّة (نسختَين)، وفى جمعيّة الآثار القبطيّة، وفى معهد الدراسات القبطيّة، وفى مكتبة الآباء اليسوعيين بالفجّالة، وفى الجامعة الأمريكيّة، وفى مكتبة الإسكندريّة.

تُرْجِم هذا الكتاب فى العام التالى لنشره، سنة ١٦٧٨، إلى اللغة الإنجليزيّة (انظر المؤلَّفات الرقم ٦)، ثمّ إلى اللغة الألمانيّة عن الفرنسيّة سنة ١٧٩٤ (انظر المؤلَّفات الرقم ٧).

وهناك بعض الفقرات مِن هذا الكتاب مترجمة بتصرُّف فى كتاب «تاريخ الكنائس والأديرة فى القرن الثانى عشر الميلادىّ لأبى المكارم الذى نُسِب خطأ إلى أبى صالح الأرمنىّ». إعداد وتعليق الراهب صموئيل السريانىّ، القاهرة، الجزء الرابع، بدون

تاريخ، ص ١١١–١٢٧؛ «تاريخ أبو المكارم». إعداد الأنبا صموئيل، الجزء الرابع عن ما كتبه الأجانب والمؤرخون عن الكنائس والأديرة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١١١–١٢٢).

الكتاب الثالث الذى نشره ڤَنْسلِب، فى سنة ١٦٧٧، هو ما دعاه «تاريخ كنيسة الإسكندريّة» (انظر المؤلّفات الرقم ٨)، وليس تاريخًا بالمعنى الحصرىّ للكلمة، لكنّه تقديم للكنيسة القبطيّة مِن مختلف أوجهها، ويعتمد فيه بشكل أساسىّ، كما يصرِّح هو نفسه، فى المقدِّمة، على كتابَى: «مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة» لأبى البركات بن كبر، و«الجوهرة النفيسة فى علوم الكنيسة» ليوحنّا بن سباع. هذا الكتاب هو أكثر كُتُب ڤَنْسلِب ذِكْرًا، ولكنّه لم يحظَ بأيّة ترجمة.

منذ بداية رحلة ڤَنْسلِب، وهو بعد فى فرنسا، أخذ يكتب مجموعة مِن الخطابات أكثرها باللغة الإيطاليّة إلى كَرْكاڤى، أمين مكتبة الملك، ويصل عدد هذه الخطابات، مع ما وصل إلى ڤَنْسلِب نفسه مِن كَرْكاڤى، وما كتبه هو إلى كولْبير باللغة الفرنسيّة، إلى ٤٤ رسالة، وقد نشرها أومون (جـ ١؛ انظر المؤلّفات الرقم ٩)، سنة ١٩٠٢. وقد دخلت بعض هذه الرسائل فى التقرير الإيطالىّ المخطوط (انظر المؤلّفات الرقم ١) الذى طُبِع باختصار فى «التقرير الجديد» (انظر المؤلّفات الرقم ٥). مِن هذه الرسائل أكثر مِن غيرها نستشفُّ نفسيّة ڤَنْسلِب والصعوبات الجمّة التى قابلها فى سنوات رحلته الخمس.

بجانب الرسائل كان ڤَنْسلِب يرسل أوّلاً بأوّل، مع المخطوطات والمشتريات الأخرى، قوائم بمضمون كل إرساليّة، وقد نشر أمون هذه القوائم (جـ ٢؛ انظر المؤلّفات الرقم ١٠).

أخيرًا يذكر هَنْتْش (انظر المراجع) كتابًا باللغة الإنجليزيّة، ظهر فى لندن سنة ١٦٧٩، منسوبًا إلى ڤَنْسلِب، ولعلّه مِن الكُتُب المزوّرة الموضوعة لتشويه صورة ڤَنْسلِب، عنوانه:

A brief account of the rebellions and bloodshed occasioned by the antichristians practises of the Jesuites and other popish emissaries in the Empire of Ethiopia.

تنـــويه

المترجم غير مسؤول عن الألفاظ والآراء التى يوردها المؤلِّف .

المؤلف هو المسؤول عنها.

أما المترجم فهو ناقل لها بحكمة الأمانة العلميّة وشروط الترجمة

ومع ذلك فقد رأى المترجم حذف جزء من فقرة فى الجزء الثالث

ترجمة كتاب فَنْسِلْبِيو

" تقرير الحالة الحاضرة لمصر "

[الإهداء]

صاحب الفخامة الجْران دوق

إنّ الأعمال المجيدة لأسلاف معاليكم ، أصحاب الفخامة، لهى معروفة، حتّى أقطار العالم البعيدة، ولذا فإنّ تذكّرها فى تلك البلاد أيضًا، التى أنا أصفها، لا يمكن أنْ يضيف نوراً إلى صيتها الكلّى البهاء، ولكن يفيد تقرير مصر هذا فقط، الذى أنا أهديه إلى معاليكم؛ لكى أُصبغ على نفسى، بطريقة ما، بعض الأهميَّة، ولكى لا أبدو غير أهل لحمايتكم السديدة.

إلى الجْران دوق فرِدْنانْدو الخالد الذكْر، أبى معاليكم الفذّ، الذى يستحقّ الحمد بجدارة، صاحب الفضل والفضيلة. لقد اهتمّ دومًا بجود ملكىّ بالمعارف الجميلة، وفتح بابًا واسعًا لسائر العلوم، تحت ظلّ حمايته، التجأت أنا أيضًا، وسط الأنواء المعاكسة التى تقاذفتنى، حتّى وصلت إلى شاطئ الأمان، ولذا بكلّ الاحترام، وضعت هذا التقرير، بالذات لكى أُتمّم إشاراته العظيمة، لذلك وجب إهداؤه إلى معاليكم، أنتم الذين تمثّلون شخصه المجيد، فى الإمارة ذاتها بكلّ السلطات. قد كان سلفكم بين الأمراء الحكماء فذًا بنوع خاصّ يفرض علىّ عرفانى بالجميل نحو طيبة وسخاء معاليكم تقديم هذه البادرة اليسيرة لاحترامى، ويدفعنى لاستمطار كلّ خير لكم من السماء، وهكذا بممارسة فضائلكم السامية تزداد دومًا أمجاد خلفائكم، ومجد اسمكم العظيم.

وفى النهاية، أُعلن نفسى خادمًا حقيراً جداً لمعاليكم السامية،

الأخ جوڤنّى ميكيله ڤَنسْلبيو

فى باريس

فى دير البشارة المقدّسة

شارع القدّيس أونوراتو

٢٠ مارس ١٦٧١

فهرس الفصول المتضمّنَة فى تقرير مصر هذا

(من إعداد المؤلف)

[١] تقرير الحالة الحاضرة لمصر

الجزء الأول

فى الأشياء الطبيعية

الفصل الأول

فـى سـكان البلد الأوائل: فـى أصل الأقباط، مسيحيى البلد الأصليين: وفـى قِدَم لغتهم المدعوّة القبطيّة

يعتقد ثقات المؤرّخين أنّ حام بن نوح أبا الآباء ، هو الأوّل الذى مع أُسرته [٢] وأتباعه، استوطن فى مصر، بعد بلبلة الألسن العامّة؛ ولذا تسمّى [مصر] بلد حام، فى عدّة أماكن مِن الكتاب المقدّس، كما فى المزمور ٧٧، و١٠٥، آية ٢٣ و٢٧ ثمّ أُطْلِق هذا الاسم على مصر، لا لأنّ نسل حام ملكها فحسب، بل لأنّ حام نفسه عَمَّرَها قبل الجميع. نذكر مِن بين المؤلِّفين الذين يؤكّدون ذلك، ديودورُس الصقليّ المؤرِّخ الذائع الصيت والقديم جداً، ذكر أنّ أوزيرِس بكر حام (والذى يُدعى باسم آخر بالعبرانيّة، وهو مصرائيم) يدعو ذاته بكر سَتورنُس [زُحَل]، فيقول: «أبى سَتورنُس هو الأصغر بين جميع الآلهة، وأنا الابن الأقدم لسَتورنُس». أمّا كون سَتورنُس هو حام فيُستَدَلّ عليه مِن شاهد قبر، عُثِر عليه على قبر نينُس، وفقًا لما يرويه تيودورُس نفسه، حيث يُدعى حام [٣] سَتورنُس المصريّ، كذلك معبد آمون (الذى لا يختلف اسمه عن حام)، ولم يكن يبعد كثيراً عن مصر، يُشَكِّل برهانًا لا يُرَدّ، أنّ حام سكن تلك النواحى.

يطلق العبرانيون فى لغتهم كلمة «مصرائيم» سواء على بلد مصر كلّها، أو على عاصمتها، وهى القاهرة، العرب كذلك يدعون الواحد والأخرى «مصر»، وتعنى الشىء ذاته، وهى [مشتقة] مِن مصرائيم بن حام، المدعو كذلك أوزيريس، الذى ملك عليها بعد موت أبيه.

أمّا نحن الأوربيّين فندعوها "إيجِبْتُس"، من ملك اسمه «قِبْط»، ويعتقد بعض المؤلّفين أنّه ابن بيلُس، وحفيد حام، الذى كان، حسب رأى بعض الكتّاب العرب، أوّل مَن بنى البيوت فيها. هذا الاسم، [٤] ويُكْتَب "كُبْت" (كما يجب أنْ يكون على الأرجح)، احتفظ، وما زال يحتفظ به حتّى الآن مسيحيو البلد الأصليون، ويُدْعون أقباطًا، ويتّضح مِن ذلك جليًا أنّهم هم نسل هذا الملك الحقيقيون، وبالتالى أقدم شعب سكن مصر.

مِن عادة الأتراك إلى اليوم، وفقًا لما سمعت أنا ذاتى عدّة مرّات فى مصر، عندما يريدون سبّ أحد الأقباط، يقولون له: «أنت جنس فرعون»، أو: «أنت قَوْم فرعون»، وهم هكذا يعيّرونهم بأصلهم الشرير مِن الفراعنة، ويعيّرونهم أكثر مِن ذلك بأنّهم نسل خَدَم إصْطَبل فرعون، وهم يعنون بذلك أنّه بعد أنْ غرق فرعون وأتباعه فى البحر الأحمر، لم يبقَ فى البيت إلاّ [٥] البوّابون وأُجَراء الإصْطَبل، الذين اقترنوا بزوجات سيّدهم؛ فجاء منهم هذا النسل، وينتج بالمثل عن هذا (إذا صرفنا النظر عن اعتبار هذا إهانة) أنّ الأتراك أنفسهم يعتبرون هؤلاء الناس أُمّة قديمة جدًا، كنسل فرعون.

للسبب ذاته، لغتهم أيضًا المدعوّة قبطيّة، كانت أوّل [لغة] جرى الحديث بها فى مصر (وسأُحاول إثبات ذلك)، وهى تحتفظ إلى الآن باسم الملك، الذى تستمدّ منه هذه الأمّة أصلها، ورغم أنّها، على ما يبدو، عانت مع مرور الزمن، حسب الشعوب المختلفة التى سادت عليهم، مِن تغييرات كبيرة، سواء فى حروف الكتابة، أو فى الألفاظ ذاتها، وعلى الأخصّ مِن اليونانيين، الذين نجد بين لغتهم [٦] ولغة المصريين تشابهًا كبيرًا.

أمّا إذا اعتقد البعض (وهذا قد يكون حقيقيًا) أنّ اليونانيين استمدّوا قسمًا كبيرًا مِن حروف أبجديتهم مِن المصريين القدماء، ونعنى بهم الأقباط، عن طريق الفينيقيين؛ فهذا يدلّ أوّلاً على أنّ المصريين كانوا أُمّة عظيمة ومثقّفة، قبل اليونانيين بمدّة طويلة. ثانيًا، أنّ اليونانيين نقلوا كلّ علومهم، وعبادة ديانتهم، وعاداتهم مِن المصريين؛ فقد بنوا [مدينة] طيبة على غرار طيبة المصريّة، ونقلوا رسم تِيههم مِن تِيه المصريين. ثالثًا، إذا افترضنا أنّ كَدْمُس قد نقل حروف الأبجديّة اليونانيّة مِن فينيقية،

فإنّه يُعْرَف جيّدًا أنّ الفينيقيين قريبون مِن الحدود المصريّة، وهم يستمدّون، حسب هيرودوتُس، أصلهم مِن المصريين، وبالتالى فإنّى أعتقد أنّ اليونانيين [٧] نقلوا جزءًا مِن حروف أبجديتهم مِن الأقباط، لا الأقباط مِن اليونانيين.

لا نجد اليوم أحدًا فى مصر يتحدّث هذه اللغة القبطيّة، رغم أنّ هناك عدّة كُتُب بها، على الأخصّ أسفار موسى الخمسة، ومزامير داود، والعهد الجديد، وكتاب القدّاس، غير أنّ هذه [الكُتُب] تُسْتَخْدَم فى عبادتهم، لا فى مكان آخر، ورغم أنّ هذه العبادة تتمّ باللغة العربيّة، فبعض القِطَع على الأقلّ تُقْرأ باللغة العربيّة، والقبطيّة، وفى العادة يقرأ الشمامسةُ الكلماتِ بدون أنْ يفهموا المعنى، وقد تحقّقت مِن ذلك عدّة مرّات مِن مثقّفين أكثر مِن هؤلاء.

تُسْتَخْدَم اليوم فى مصر، على نطاق عامّ، اللغة العربيّة الدارجة، ويُدْعى عربًا أُولئك الذين هم مِن [٨] نسل الأقباط نفسه (أى نسل الملوك القدماء المدعوين قِبْط)، غير أنّهم مسلمون. أمّا الأقباط فهم (كما قلنا) أُولئك الذين يتبعون الديانة المسيحيّة. بخلاف هذه اللغة هناك اللغة الإيطاليّة المحرّفة، والتركيّة الدارجة ، وتُسْتَخْدَم هذه على الأخصّ فى بلاط الباشا، وبين جنوده.

الفصل الثانى

فى موقع البلد ، وفى طوله وعرضه ، وتقسيمه ، وحكمه ، وخصبه ، وفى طبيعة السكان وشكلهم ، وفى الصعوبات الصحية التى يواجهها الأوروبيون الذين يسمونهم فرنج

تقع مصر بين آسيا وأفريقيا كحدٍّ فاصل بينهما.

البلد كلّه حسب [٩] طوله، الذى يمتدّ مِن الجنوب نحو الشمال (أى مِن مدينة إبْريم حتّى الإسكندريّة، وهى مدينة وميناء على البحر المتوسِّط، المسمّى أيضًا [البحر] المصرىّ) نحو خمسمائة وستّين ميلاً، وينقسم إلى أعلى وأسفل، يُسمّى الأعلى بالعربيّة «الصعيد»، قد كُتِب فى خريطة العالم خطأ «الصهيد»، والأسفل «بحرى». ينطلق تقسيم مصر هذا مِن عاصمتها، وهى القاهرة، التى تقع وكأنّها فى وسط البلد. وطول مصر بأسرها مِن الجنوب نحو الشمال، موازٍ لطول مجرى النيل، الممتدّ على طول البلد، ويصل بمياهه العذبة إلى بولاق، وهى أحد أحياء القاهرة، ومنها يتمّ الإبحار إلى الإسكندريّة، و ينقسم تحت القاهرة إلى فرعَين، إلى أنْ يصبّ فى البحر. وحسب [١٠] مجراه، تنقسم مصر إلى الجزء الشرقىّ، والغربىّ، وتقع القاهرة فى الجزء الشرقىّ، وتقع الأهرامات حوله، فى الجزء الغربىّ.

تبدأ مصر العليا، أو «الصعيد»، فوق القاهرة بمسافة سَفَر يوم، وربّما أقلّ، وتمتدّ نحو الجنوب، أىْ عكس ماء النيل، حتّى الشلال الأوّل (وهو الأوّل بالنسبة لأهل مصر، ويبعد عن إبْريم، وهى أرض فى دُنْقُلة، وهى مسافة يوم صغير)، وتنقسم إلى سبع دوائر، تسمّيها العرب "أقاليم". كلّ دائرة، أو "إقليم" يرأسها حاكم، أو «كاشف»،

حسب التسمية العربيّة، يجعل مقرّ إقامته ومحكمته في الأرض [المدينة] الرئيسيّة، ومنها يأتي اسم دائرته كلّها، وهذه الدوائر [١١] (بدءًا مِن الأقرب إلى القاهرة، بالترتيب حتّى الأخيرة، وهي جرْجا) هي التالية:

[الدائرة] الأولى «أطْفيح»، وتسمّى هكذا الأرض كلّها حيث يقيم الحاكم، تقع في الجزء الشرقيّ مِن النيل، وتشمل الإقليم كلّه.

الثانية «البَهْنسا»، وهي نحو غرب النيل.

الثالثة «المنيا»، وهي كذلك نحو الغرب، وتقع المدينة بالقرب مِن النيل.

الرابعة «الفيوم»، وهي كذلك في الجزء الغربيّ، وتبعد المدينة عن النيل ثلاث ساعات سيرًا على الأقدام داخل البلد.

الخامسة «مَنْفَلوط»، نحو الغرب كذلك، وتقع المدينة بالقرب مِن النيل.

السادسة «أسْيوط»، في الغرب، وتبعد المدينة قليلاً عن النيل.

[١٢] السابعة «جرْجا»، في الغرب، وهذه المدينة داخل البلد، وهي مسيرة نحو ثلاثة أرباع الساعة سيرًا على الأقدام.

كلّ هذه الأماكن أراضٍ جميلة وكبيرة وزاخرة بالآثار القديمة المجيدة، يسكنها لا العرب فحسب، بل وأعداد غير محدودة مِن الأقباط، وتجرى فيها تجارة ضخمة للقمح، والكتّان، والقماش.

لا أتحدّث عن أيّة واحدة مِن هذه الأراضي على وجه خاص؛ لأنّي لم أشهد أحداثًا أو أمورًا غير عادية، كما وجدت في جرْجا، وهي المدينة الرئيسيّة لمصر العليا بأسرها، والتي يمكن اعتبارها قاهرةً أخرى، سواء بالنسبة إلى الضخامة، أو بالنسبة إلى التجارة الواسعة، وتوافد الأُمَم الشرقيّة عليها. يقيم في هذه المدينة حاكم، كان في الماضي باشا مطلق الصلاحيّات، كباشا القاهرة، ولم يكن يعترف برئيس آخر له، سوى [١٣] السيّد الأعظم [في إستانبول]. ولكن، عندما تمرّد أحمد باشا، سنة

١٦٦٠، ضدّ السيّد الأعظم، هاجمه باشا القاهرة، وهزمه، وخنقه. منذ ذلك الحين فصاعداً، نُزِعَ [عن حاكم جِرْجا] لقب باشا (رغم أنّ منطقة حكمه لم تتضاءل)، ولكن يُسمى «باى» فقط، أىْ أمير، ويجب أنْ يعتبر باشا القاهرة المذكور رئيساً له.

مصر السفلى، التى تُسمّى فى العربيّة الدارجة «بحرى»، هى ذلك الجزء من مصر الممتدّ مِن القاهرة موازياً لمجرى النيل، حتّى يصل إلى البحر المتوسِّط، ويشمل أيضًا ذلك الجزء القريب مِن دمياط الذى يدعوه العرب «بحر الشرق»، أىْ فرع النيل المتّجه نحو الشرق.

تنقسم مصر السفلى كذلك إلى سبع دوائر، أو "أقاليم"، [١٤] أسماؤها، بدءًا مِن الأقرب إلى القاهرة، وبالترتيب حتّى الإسكندريّة، هى:

[الدائرة] الأولى «قَلْيوب»، والأرض [المدينة] الرئيسيّة تُسمى كذلك «قَلْيوب».

الثانية «بِلْبيس»، تبعد عن القاهرة نحو يوم على الشاطئ الشرقىّ للنيل.

الثالثة «المنصورة».

الرابعة «الغربيّة»، ويُسمّى مقرّ الحاكم «المَحَلّة الكبرى».

الخامسة «منوف».

السادسة «البحيرة»؛ ويُسمّى مقرّ الحاكم «دَمَنْهور».

السابعة «الجيزة»، ويُسمّى مقرّ الحاكم «أوسيم».

عرض مصر ليس متشابهاً، فقد رأيت فى أسفارى، أنّ القسم الشرقىّ منه، مِن القاهرة حتّى جِرْجا كله تقريبًا أرض رمليّة وجرداء، وهناك كثير مِن [١٥] الجبال المرتفعة على طول النيل، والقسم الزراعىّ قليل أو معدوم. القسم الغربىّ منه ليس متشابهًا بالناحية الأخرى الجرداء، ولكنّى على قناعة أنّ العرض الأكبر للمنطقة الخصبة لا يتجاوز اثنى عشر ميلاً، رغم أنّه فى بعض الأماكن ستّة أميال فقط، كما يذكر العلماء؛ لأنّ مَن يبحر على النيل، يرى على مرمى البصر رمال الصحراء الليبيّة.

غير أنّ الجزء الأسفل مِن مصر (المسمّى بالعربيّة «بحري»، ويدعوه الأقدمون «دلتا»)، يمكن تسميته بحقّ فردوسًا أرضيًا؛ لأنّ هناك تتّسع الأرض الزراعيّة رويدًا رويدًا، وتستمرّ اتّساعًا حتّى البحر، والعرض مِن دمياط، المدينة الواقعة فى أقصى شرق مصر، حتّى الإسكندريّة، المدينة الواقعة فى أقصى الغرب على البحر ذاته، يمكن تقديره بمائة وستين ميلاً.

كلّ ما ذكرناه حتّى الآن [١٦] متعلّق بمحيط مصر حسب وصفها الجغرافىّ. غير أنّه يجب التنويه إلى أنّ نطاق سلطتها أكبر مِن الذى قلناه؛ لأنّه يمتدّ نحو الشرق، حتّى [شبه الجزيرة] العربيّة، إلى جدّة، وهى مدينة شهيرة جدًّا على البحر الأحمر، وتبعد عن السويس (مدينة على البحر نفسه) نحو خمسة وعشرين يومًا، كما هى الحال عادةً عند السفر بحرًا، ويتبع حاكمها والحامية التى فيها باشا القاهرة الكبرى.

لقد بذل إبراهيم باشا جهدًا كبيرًا لتشجيع هولنديى [الجزر] الهنديّة إلى التجارة مع جدّة، ولهذا الغرض قدّم عدّة مرّات للسيد يوهَنّ تيلْس، قنصل الأمّة الهولنديّة فى القاهرة، امتيازات كثيرة للتجارة مع [أهل] بلده، المقيمين فى مُقَّه، ومدن أُخرى فى [جزر] الهند، [١٧] كلّما جاءوا للتجارة، رغم أنّه منذ سنوات قليلة، لم يكن مسموحًا لا للمسيحيين ولا لليهود، أنْ يضعوا أقدامهم على أرضها، تحت طائلة الإعدام. أمّا الآن، فمنذ سنوات قليلة، عند الوصول إلى الميناء يمكنهم التوقُّف ثلاثة أيّام، غير أنّه عندما يُكْتَشَف أنّهم مسيحيون أو يهود، لا يسمح لهم بدخول المدينة؛ لكونها تبعد أربعين ميلاً فقط عن مكّة الشهيرة، ولا يسمحون لأىّ نجس (كما يعتبرون المسيحيين واليهود) أنْ يلمس تلك الأرض، المقدّسة، حسب رأيهم.

أهل مصر، عادةً ، لونهم زيتونىّ، ونحو الجنوب، يكون اللون زيتونىّ أكثر، إلى أنْ تصل إلى إبْريم ودُنْقُلة، مِن أراضى النوبة، حيث يشترك الجميع فى اللون الكستنائى.

أضف إلى ذلك [١٨] إنّهم متبلّدو الطبع، كسالى، بطّالون؛ يقضون اليوم بأسره فى الساحات، متدثّرين "ببردهم" (وهى نوع مِن لبس الفلاحين)، أو يكتفون بالجلوس

فى المقاهى أو يجلسون فى المزارع زرافات على شاطئ النيل، حيث يشربون القهوة، أو يدخّنون التبغ، أو ينامون. وعندما كنت أرى هذه الزمرة من الكسالى، كنت أقول لنفسي: أيّة كنوز كان يمكن أنْ يقدّمها هذا البلد، لو كان يسكنه أُناس مجتهدون ومحبّو التعب. فى بيوتهم يحبّون الراحة، واللهو، ولا يحترمون أيّة مواعيد، وعليه فلا يمكن الوثوق لا بكلمتهم، ولا حتّى بقسمهم. لا يحافظون على أىّ نظام، وغير متحضّرين؛ فهم وقحون، يبعثون على السأم، غير مهذّبين، قذرون فى معيشتهم؛ وبالابتعاد أكثر عن القاهرة، تجدهم أكثر توحُّشًا، وذلك بسبب [١٩] بعدهم الكبير عن التعامل مع الفرنج.

أمّا النساء فعلى العكس، حسناوات المنظر ولطيفات المعشر، البعض منهنّ لونهنّ أسمر، والبعض الآخر، ذوات لون أبيض نادر، ولا سيّما اللاتى من طبقة اجتماعيّة راقية. عادةً قصيرات، وممتلئات، ولهنّ عيون سوداء حادّة، خصوصًا لأنّهنّ يضعن ما يسميه العرب «الكحل»، وهو نوع من التراب، يُستَخدم لهذا الغرض.

المتاعب الصحيّة التى يعانى منها الإفرنجيّ، أيْ الأورُوبى فى مصر، هى التالية: ١) فى الصيف حرّ شديد، وتراب، وعلى الأخصّ فى القرى، لأنّ الشوارع ليست مُبلّطة، لا فى القاهرة ولا فى أيّة مدينة أُخرى. ٢) الكمّيّة الهائلة من القاذورات [الهوام]، كالعناكب الضخمة، والعقارب، والبعوض، وما أشبه ذلك تجدها بأعداد كبيرة [٢٠] لا تُصَدّق. ٣) فى القاهرة لا يمكنك أنْ تخطو أربع خطوات، إلاّ وتتلقّى بعض الضربات، أو الدفعات، بسبب تدافع الناس، والجمال، والمُكاريين، والحمّالين. ٤) يُلقى الرُعاع والأولاد بالحجارة على الفرنج، وتشاركهم النسوة فى ذلك، [يقومون] بالبصاق عليهم، ويسخرون منهم فى الشوارع. ٥) يقوم الأتراك بكلّ الحيَل لخداع الفرنجيّ، واستغلاله ليدفع أكثر، حتّى إنّه لا يمكن التعامل معهم. ٦) يُفْرَض على الفرنج أنْ يدفعوا ثمن الأمتعة كلّ مرّة يُعْرَفون فيها. ٧) لا يستطيع الفرنج أنْ يتجوّلوا، أو يتنزّهوا؛ لأنّهم لا يستطيعون الخروج من البيت بدون حراسة بعض الإنكشاريّة، الذين يطلبون فى تلك الحالة ثمنًا باهظًا مقابل خدمتهم.

البلد نفسه، إذا تغاضينا عن المضايقات المذكورة، باستثناء بعض [٢١] الأقسام الجرداء المذكورة سابقًا، جميل، ويفيض بكلّ نوع من المأكولات للبشر، وللبهائم أيضًا، وكلّ شيء بثمن معقول جداً؛ ففي مصر العليا، يُمكن الحصول بـ"جديد" واحد (وهو واحد من ثمانية من "المدين"، وتكوّن ثلاثة وثلاثون منه قطعةً من الثمانية [ريالات])، على عدد كبير من الخبز الأبيض يكفي أيّ أكول. وبـ"مدين" ونصف، أيْ ما يساوي ثلاثة "بايوكّ"، وثلاثة أرباع الفلوس الرومانيّة، يُمكن الحصول على دجاجة كبيرة؛ وبـ"مدين" واحد (أيْ اثنى عشر فلسًا)، زوجَي حمام؛ وبـ"جديد" واحد (أيْ بفلس ونصف)، ثلاث بيضات، وهكذا بقطعة من الثماني، ثمانمائة وثمانين بيضة لرطل من اللحم تدفع خمسة "جديد". وبـ"مدين" واحد، يُمكن الحصول على بطّيختَين من أجود ما يكون.

أمّا النبيذ، والخشب، والزيت، فهي [٢٢] الأشياء الأغلى؛ ثمن زجاجة نبيذ قبرص بمقاس البندقية، نصف قطعة من الثمانية [ريالات]، وأحيانًا ثلاثة أرباع. يساوي مائة رطل من الخشب، قطعة كاملة؛ والسبب هو أنّ الخشب يُستَورد عن طريق البحر من القسطنطينيّة.

الفصل الثالث

فى الفصول، وتغيّر الهواء، فى العواصف، والأمطار، فى الصيف، والشتاء، فى الزلازل، وفى آخر مُذنّب ظهر

يكون الشتاء ، عادةً ، معتدلاً، كما هى الحال فى روما فى شهر مارس، إلاّ عندما تهبّ الرياح الجنوبيّة الغربيّة، حينئذٍ يكون الجو مطيرًا، وهذا يحدث فى الشتاء، غير أنّه فى شهر نوڤمبر يُمكن ارتداء الفراء.

[٢٣] لقد بدا لى الشتاء فى القاهرة أقسى منه فى الإسكندريّة؛ لأنّه من يناير حتّى منتصف فبراير يكون الصباح والمساء باردَين لدرجة أنّه لم يمكنّى عدم ارتداء الفراء.

موسم المطر الاعتياديّ، فى شهر ديسمبر ويناير وفبراير، يكون مصحوبًا على الأخصّ بالرياح الجنوبيّة الغربيّة، التى تسود فى ذلك الوقت، والمطر فى الإسكندريّة كثير، أكثر ممّا فى القاهرة، وكذلك فى داخل البلد، بسبب قرب البحر. لقد شهدت مطرًا لثلاثة أيّام شبه متواصلة، حتّى أنّه كان يمكن عبور الساحات القريبة من ساحل البحر بالمركب. فى القاهرة أمطرت يوم ١٣ يناير ١٦٦٤، ليوم وليلة كاملة، وكذلك أيضًا يوم ٨ فبراير، وبالتالى يُعَدّ باطلاً رأى مَن يقول إنّه لا تمطر أبدًا فى تلك البلاد. ويوم ١٦ مايو، وأنا مسافر مِن القاهرة إلى مَنْفَلوط وجرْجا، [٢٤] وأثناء تواجدى فى مركب على النيل، هطلت فى تلك الليلة أمطار شديدة، حتّى أنّى تغطّيت بفروتى، المبطّنة بجلد يستعمله الأتراك، وتركّز الماء، حتّى لم تَعُد صالحة للاستعمال. من ذلك اليوم فصاعدًا حتّى أكتوبر لم تنزل أمطار أُخرى، ولم تحدث بروق فى السنة كلّها.

أوقات السنة التى تكثر فيها العواصف هى من [عيد] الفصح إلى العنصرة، وبينما تهبّ الريح أكثر من جهة الشرق والبحر الأحمر، حاملةً معها كمّيّةً كبيرة من الرمال والقشّ، تبدو كأنّها سُحُب كثيرة، وتكون قويّة لدرجة تُثْنيك عن الخروج من البيت، ومَن يخاطر بالسفر، يهلك لا محالة.

الوقت الأكثر اعتدالاً وقبولاً يبدأ فى الغالب من ديسمبر؛ لأنّ الأرض الزراعيّة وقتئذ تجفّ [٢٥] من مياه النيل، وتخضرّ الحقول وتزهر فى كلّ مكان، وتكون الطرق سالكةً، وتسود رياح لطيفة، وتكون الشمس محتملةً، ويمكن فى ذلك الفصل القيام بكلّ نوع من النزهات المحبّبة.

نحو نهاية مايو، يبدأ الحرّ المزعج، ويكون انعكاس الشمس وقتئذ لاسعًا، ولذا يمكن القول إنّها تجعل جلد الوجه يتّخذ اللون البرونزىّ، ولا يركن المرء لا للريح، ولا للهواء؛ لأنّ أيّة ريح قصيرة تبدو وكأنّها نار، تلسع الوجه. يشعر المرء فى البيوت أيضًا بلهيب لا يختلف عن المدافئ المشتعلة بالنار، وحتّى مَن يرتدى قميصًا [فقط]، يشعر مع ذلك بهذه الحرارة. لا يمكن ترجّى أيّة برودة إلى أنْ يُقْطَع النيل؛ لأنّه عندما يغمر الأرض المزروعة يُرَطِّب الهواء بشكل ملموس، وقتئذ [٢٦] تتلبّد السماء بالغيوم، وينعم المرء بهواء أكثر احتمالاً.

يشعر المرء بحرارة الشمس أكثر، على الأخصّ فى مصر العليا وفى قُراها، عندما لا نجد أىّ ظلّ، لا لبيت، ولا لشجر؛ لأنّ الشمس تكون أكثر النهار عموديّة، ولا يكاد يُرى فى شهور يونيو ويوليو وأغسطُس، أىّ أثر لغيمة ولو صغيرة، وفقًا لما أستطيع تأكيده عن خبرة، لأنّى كنت هناك فى هذه الشهور. وقتئذ تعانى العيون كثيراً، ولا نجد أىّ غريب إلاّ وعيناه ملتهبتان ودامعتان، ولا يعانى من هذا المرض الغرباء فقط، بل وأهل البلد أيضًا؛ ولذا نجد كثيراً من العميان، ومرضى العيون، حتّى أنّى أعتقد أنّ عميان أوروبّا مجتمعين أقل عدداً [٢٧] من عميان القاهرة وحدها.

فى المدن الكبرى لا يتعرّض المرء، حقيقةً، للحرّ الشديد، كما فى القُرى؛ لأنّ هناك أُناسًا مختصّين برش الشوارع، وعربًا يبيعون الماء البارد المنعش، وكذلك بسبب ارتفاع البيوت، وتغطية الشوارع الرئيسيّة بالحُصُر.

فى أوّل ديسمبر سنة ١٦٦٤ شعر الناس بزلازل فى القاهرة والإسكندريّة، نحو الساعة السادسة ليلاً. ويوم ١٣ منه فى السنة ذاتها شُوهِد، لأوّل مرّة، المُذنّب (وقد شُوهِد كذلك فى الوقت ذاته فى إيطاليا)، وكان فى المشرق. كنت وقتئذٍ فى رشيد، حيث رأيته قبل طلوع النهار بثلاث ساعات، وبعد ذلك يوم ٢٦ منه، وأنا فى الإسكندريّة، رأيته فى الغرب نحو الساعة الواحدة، وكان ذيله متّجهًا نحو الشرق.

[٢٨] وقد فسر الفرنج ذلك، بوجه عامّ ، كفأل حسن لتمرُّد فى مملكة مصر ضدّ السيّد الأعظم؛ لأنّه فى ذلك الوقت حدث اضطراب فى القاهرة، وكان الرئيس هو باى جدّه، وبعد ذلك نُقِل ورُقّى، رغم اعتراض باشا القاهرة، إلى رتبة باى وحاكم لجِرْجا، وكان فى ذلك كثير من الحقيقة؛ لأنّ هذا [الباى] أراد أنْ يتحالف مع العرب القريبين، وبسبب نفوذه كان يمكنه بسهولة أنْ يُصبح سيّدًا وباشا مطلقًا لجِرْجا، على غرار أسلافه فى الماضى، أمّا آخرون أكثر تعقُّلاً، فقد اعتبروا [ظهور المُذَنب] كنذير لوباء.

[٢٩] الفصل الرابع

فى النيل وعجائب أخرى له

بخصوص منبع النيل، أتّفق فى الرأى مع فْرَنْسيسْكو أَلْڤارِس، فى تاريخه للحبشة، ومع جوڤنّى ليونه، الكاتب الشهير، ومع الآبا غريغوريوس الحبشىّ، الذى- منذ خمس عشرة سنة، وفى أثناء إقامته فى بلاط صاحب الفخامة أرْنِسْت دوق سكسونيا وجوتا- قدّم له تقريراً وافياً عن منبع النيل ومجراه: أىْ أنّه ينبع فى الحبشة مِن مصادر مختلفة فى مملكة «كوجام»، الواقعة بين الجنوب، والغرب، خلف مملكتى «دِمْبيا»، و«بِجَميدر»، ويجرى نحو الشمال، فى ناحية جريكو، إلى بحيرة طانا، ثمّ يتّجه مباشرةً نحو الشرق، ويدور نحو الجنوب، حيث يُبَلِّل [أراضى] [٣٠] مملكة «دامُت»، ثمّ يتّجه مِن جديد نحو الشمال لكى يعود، فى شبه دائرة، ويمرّ قريباً مِن منبعه، وبعد شلّالات مرتفعة جداً مختلفة، يسقط أخيراً بانحدار شديد مِن الشلّال الأخير بالقرب مِن إبْريم، وهى مدينة فى النوبة، ويدخل مصر، وبعد نهاية مجراه الهادئ فيها يصبّ فى البحر المتوسِّط.

ذكر لى القمُّص يوحنّا رئيس كهنة الإسكندريّة، أنّ أحد السفراء المدعو حاج ميخائيل، المُرسل مِن قِبَل ملك الحبشة، إلى السيِّد الأعظم منذ اثنتى عشرة سنة، عند مروره بالإسكندريّة أخبره أنّه رأى واحداً مِن منابع النيل الرئيسيّة، وقال إنّ الماء ينبجس مِن الأرض بقوّة شديدة، إلى حدّ أنّه لو رمينا حجراً عليه لألقاه خارجاً.

قال لى القمُّص يوحنّا نفسه، إنّ السفير [٣١] المذكور أخبره أنّ السماء تمطر فى الحبشة بدون توقف، من شهر «بؤونه» (أىْ يونيو)، إلى شهر «توت» (أىْ سبتمبر)، وينحدر هذا المطر من الجبال إلى النيل، وتفيض المياه كثيرًا فيه، وتكون بداية ذلك فى الثانى عشر من شهر «بؤونه»، فى عيد القدّيس ميخائيل (وهو الوقت الذى يبدأ فيه عندهم الشتاء)، ويقابل هذا العيد فى حسابنا ١٧ يونيو. تقرير القمُّص هذا وضّح لى القول المأثور بين المصريين، وكنت قد سمعته كثيرًا منهم، عندما كانوا يقولون: إنّه فى عيد القدّيس ميخائيل تحلّ البركة والنقطة، ومعنى هذا لم يشرحه لى أحد قبل ذلك.

يمكن أنْ نرى إذَنْ فى هذه الأمطار السبب الرئيسىّ لفيضان النيل، الذى تساهم فيه [٣٢] بجزء كبير الرياح الباردة الشماليّة الغربيّة المستمرّة، التى تبدأ فى مصر نحو نهاية يونيو، وتستمرّ حتّى منتصف أكتوبر (وفقًا لما أخبرنى به القنصل الفلمنكيّ، أنّه لاحظ ذلك سنة ١٦٦٣، وقد اختبرته أنا بنفسى سنة ٦٤، عندما وضعت سارية على قمّة بيتنا، ولاحظت تغيّرات الهواء، وجدت ذلك حقيقيًا جدًا). هذه [الرياح] تدفع أمواج البحر المتوسِّط إلى خارج الساحل، وتمنع النيل من أنْ يصبّ فيه.

الرياح نفسها هى أيضًا سبب ارتفاعه [النيل] المتفاوت؛ لأنّه يرتفع فى يوم مقدار إصبع، وفى آخر ثلاثة، وفى آخر سبعة، وهكذا رويدًا رويدًا، حسبما تهبّ الريح الباردة الشماليّة الغربيّة. وذلك يُلاحَظ فى عمود المقياس (وهى جزيرة صغيرة فى النيل بالقرب من مصر القديمة)، وهو (وفقًا لما يقول [٣٣] جوڤنّى ليونه)، مُقَسَّم ومُحَدَّد بستّ وثلاثين ذراعًا، ومغروس فى حفرة مربعّة، وعميقة ثمانى أذرع، ويقع هذا [العمود] بالقرب من جامع، فى وسط غرفة مغلقة، ويدخل الحجرةَ مجرى ماء، مارًا تحت الأرض، مقابل شاطئ النيل، وهكذا عندما تبدأ المياه فى الارتفاع، تدخل فى الحفرة، حيث يقوم الناس المكلّفون من قِبَل الباشا بمراقبة ارتفاعها، ويذيعون ذلك، أو كما يقولون هم، ينادون به فى المدينة، وعلى الأخصّ فى بيوت القناصل، والشخصيّات المهمة. وقد قيل لى إنّه ذات سنة زاد فى ليلة واحدة ستّة وخمسين إصبعًا، وإنّه عكس ذلك فى السنة ذاتها، فى مرّة أُخرى، مضى ستّة عشر يومًا قبل أنْ يزيد إصبعًا واحدًا.

ذات سنة، زادت [مياه] النيل ببطء، بسبب قلّة الرياح، [٣٤] كما حدث فى السنة الثالثة والستّين، فأصاب الناس غَمّ عظيم خوفًا مِن المجاعة أدّى بهم إلى بيع المجوهرات، وكلّ شىء آخر ثمين؛ لكى يتزوّدوا بالميرة. لكن على العكس، عندما تكون الرياح عاتيةً، يزداد النيل سريعًا، كما حدث سنة ٦٤، فزاد فى يوم واحد أكثر مِن زيادته فى السنة الماضية فى عشرة [أيّام]، حينئذٍ يعمّ البلد السرور والحبور. فعندما يصل إلى ارتفاعه الضرورى لرىّ الأراضى الزراعيّة، وهو ستّ عشرة ذراعًا، يأمر الباشا الصوباشى أنْ يوصى الناس ، الذين عليهم الدور فى تلك السنة، أنْ يقطعوا النيل؛ وكانت هناك عادة قديمة أنْ يقوم الأتراك بذلك فى سنة، وفى أُخرى الأقباط، وفى أُخرى اليهود، فى السنة المذكورة حدث ذلك يوم ٧ أغسطُس، ولكن فى السنة السابقة كان يوم ٢٠ منه، بسبب [٣٥] اختلاف الرياح، وفقًا لما قيل سابقًا.

بما أنّنا ذكرنا قَطْع النيل، لن نخرج عن الموضوع لو أضفنا أيضًا للقارئ الفضولىّ، للمزيد مِن الوضوح أنّ هناك حول مصر عددًا كبيرًا جدًّا مِن القنوات الصناعيّة [السواقى]، مصنوعة حسب حاجة كلّ أرض أو حقل لريّه، وكلّها توازى قناة النيل الكبرى، لكنّها مغلقة بحواجز، إلى أنْ يبلغ النيل ارتفاعه المحدّد. تتمّ إزالة كلّ هذه الحواجز فى ذات الساعة التى تتمّ فيها إزالة حاجز القاهرة، المدعو "خليج"؛ لأنّه الأكبر مِن الجميع، وعليه تنتظم حواجز البلد بأسره، هذا ما يجب فَهْمه بشكل أساسىّ بخصوص [٣٦] ما قلناه عن قطع النيل.

إنّه لأمر ممتع مشاهدة أعيادهم فى ذلك الوقت: نيران صناعيّة ومظاهر سعادة أُخرى يقومون بها، لكن لمّا كان سانْدِس، المؤلِّف الإنجليزىّ، فى تقريره عن رحلاته، المطبوع فى لندن، سنة ١٦٥٨ مِن القطع الكامل، قدّم تقريرًا مفصّلاً جدًّا عن ذلك، لن أتوقّف عنده، بل أُحيل القارئ إلى المؤلِّف المذكور. أُضيف فقط إنّه بخلاف هذه الاحتفالات وأهازيج السرور، يمتطى الصوباشى صهوة حصانه بالقرب مِن القناة المذكورة قبل دخول النيل على طول المدينة. يسبقه نحو مائة عربىّ، كلّ واحد منهم بعصاه الطويلة المربوطة على ظهره، بطبلته، ويسبقه اثنان مِن "اليسياريّة"، يتلوهم

عشرة إنكشاريّة حاملين الأسلحة الناريّة، وبعد هؤلاء اثنان من الطبّالين محمولين على جمل، يتبعهما الشعب. أمام بيوت [٣٧] قناصل الفرنج، الذين يسكنون ، عادةً ، بالقرب من هذه القناة، يتوقّف الصوباشى مع كلّ تابعيه، ويعزف الطبّالون مع "البيساريّة"، ويطلق الآخرون النيران المتوهّجة، فيقوم كلّ قنصل ببذل بقشيش اثنى عشر أبوكلب (ويساوى الواحد نحو قطعة من الثمانية [ريالات])، وثلاثة "مدين"، وجرّتين من النبيذ، وهكذا يتابعون رحلتهم على طول القناة، وبعد ذلك بقليل يجرى الماء (رغم أنّه يكون قذرًا جداً بسبب النفايات)، فيقوم الرعاع بإلقاء الماء بعضهم على بعض، ويتمرّغون فيه كسائر الحيوانات النجسة، وهذا لمجرد العربدة والتهليل، ويلقى أخرون قطعًا من الخبز من النوافذ، كنوع من الترحيب بالنيل، حسب خرافاتهم، على طول مجرى هذه القناة، لا يقوم الناس إلاّ بإلقاء ذواتهم فيها، وبالتنزّه بالمراكب بمصاحبة الموسيقى.

[٣٨] فى سنة ١٦٦٤ جرت هذه القناة ثلاثة أشهر متواصلة، أىْ من ٧ أغسطس إلى ٧ نوفمبر، يوم توقّف الماء، عندئذٍ رفعوا منه ثلاثمائة امرأة ميتة وأكثر من نصفهنّ بلا رأس، وقد قيل إنّ القسم الأكبر منهنّ كنّ نساء ساقطات، ألقاهنّ إمّا عشّاقهنّ، أو الإنكشاريّة. فى باقى أيّام السنة تفوح رائحة عفونة غير محتملة، بسبب المياه الأسنة، التى تبقى من سنة إلى سنة، لا أقلّ من ارتفاع قصبة ونصف؛ ولذا فلا عجب، إنْ كان لهذا السبب، أو لأسباب أُخرى، يتفشّى الوباء كثيرًا فى القاهرة.

فضلاً عن ذلك، سواء الأتراك، أو اليهود، أو الأقباط، لديهم اعتقاد خرافىّ جنونىّ بالنسبة إلى النيل، إذ يعتقدون أنّه ينبع من السماء، وبالتالى يعتبرون مياهه شافيةً، ولكن على الأخصّ يتنعّمون كثيرًا [٣٩] بالاغتسال فى هذه القناة المدعوة "الخليج" وهى تجرى، وبسبب قرب البيوت والسلالم يهرع كثير من الناس، حتّى أنّه يصل عددهم فى النهار إلى آلاف الرجال من كلّ الحالات الاجتماعيّة. تحمل الأمّهات أبناءهنّ، حتّى لو كان الأطفال فى الأقماط، أمّا الشباب فيقومون بألعاب كثيرة فى هذه المياه، وهناك مَن يلقى بنفسه حتّى من النوافذ. باختصار يحدث فى القاهرة لهو، فى أثناء [جريان] الماء فى هذه القناة أكثر منه طوال العام.

وهناك قناة أُخرى شهيرة جداً فى مصر العليا، بجانب مدينة «ديروط الشريف»، اسمها «بحر يوسف»، تبدأ من هناك، وتصل إلى مدينة «الفيوم»، ويعتقد معظمهم، وفقًا لما قرأت أيضًا لدى مؤلِّفين عرب، وهم مِن الثقات، منهم مؤلِّف [٤٠] الكتاب المدعو بالعربيّة «جريدة العجائب»، تحت فصل الفيوم؛ وجوقِّنّى ليونه، وهما يؤكِّدان أنّ يوسف ابن أبى الآباء يعقوب سكن الفيوم، حيث حفر هذه القناة، لا فى القاهرة القديمة، كما يعتقد الكثيرون.

هناك قناة أُخرى شهيرة، يراها المسافر مِن القاهرة على النيل فى الجانب الأيسر، أمام مدينة «فُوّة»، بالقرب مِن القرية المدعوّة «لَطْف»، وتزوّد الإسكندريّة بالمياه، فتملأ صهاريجها بها، وليس للمدينة أيّة مياه حلوة أُخرى. طولها أربعون ميلاً إيطاليًا، وبعد أنْ تملأ صهاريج المدينة المذكورة، تصبّ على بُعْد رمية سلاح ناريّ غير بعيد مِن رأس الصهاريج المذكورة، فى بحيرة ميوتس [مريوط].

[٤١] أمّا القنوات الأُخرى فلا يجب ذِكْرها بالمرّة.

لكيْ نعود الآن إلى حديثنا الأساسيّ عن فيضان النيل (وقد أسهبنا فيه بمناسبة قناة "الخليج" وقطعها)، نقول إنّه عندما يرتفع النيل فوق الستّ عشرة ذراعًا، يكون هذا أفضل للبلد، ويسمح بريّ الأراضى الأكثر ارتفاعًا، وكلّ مرّة لا يصل إلى ستّ عشرة ذراعًا، لا يلْزَم السكّان بدفع الخراج للسيِّد الأعظم، لأنّه يقدّم الماء لرعاياه مقابل الخراج.

أمّا بخصوص الإعلان عن فيضان النيل وإذاعته، فقد قدّم تقريرًا كافيًا عن ذلك بيترو دِلاّ ڤلّه. أُضيف فقط أنّ هذا الأمر يبدأ يوم ٢٩ يونيو، عيد القدّيسَين بطرس وبولس. هذه الإذاعة [٤٢] لا يُفْهَم منها أنّه لا يزيد قبل أنْ يُعْلَن عنه. فى سنة ٦٤، كان فى ذلك اليوم قد زاد تسع أذرع، مع أنّه لم يكن فى السنة الماضية قد تجاوز الأربعة أصابع، ولمّا كان فى سنة يصل إلى علامته أسرع من سنة أُخرى، ينتج أيضًا أنْ يكون انخفاضه إمّا أسرع، أو أبطأ، حسب اتّجاه الريح.

والآن، إذا أردنا القيام بحساب دقيق، كمْ من الوقت يستمرّ النيل فى الزيادة سنة ١٦٦٤، بدءًا من ١٧ يونيو عند وقوع النقطة، إلى ١٨ سبتمبر حيث يبلغ قمّته، يكون قد زاد ثلاثة أشهر وبضعة أيّام، لكن ذلك ليس ثابتًا، للأسباب المذكورة الخاصّة بالريح.

سنة ١٦٦٤، زاد النيل ثلاثًا وعشرين ذراعًا وخمسة أصابع، ويؤكّدون أنّ الأمر لم يحدث أبدًا، وعندما يزيد [٤٣] ثلاثًا وعشرين ذراعًا لا يشتكون، وتكون الناس سعيدة مِن البركة الإلهيّة، ولينخفض ما يشاء مِن الانخفاض.

يوم ١٤ سبتمبر يقْطع النيل مِن جديد تحت القاهرة، وحتّى ذلك الوقت كان الفلاحون يضعون الحواجز حول حقولهم، ويُقيمون الحرّاس، لئلاّ يسرق أحدُ الماء، ولكن منذ ذلك اليوم فصاعدًا، يجوز لكلّ أحد سحبه إلى حيث يرغب؛ لكى يستعمله كما يريد، وهؤلاء يجمعون المحصول ١٨ يومًا بعد الآخرين.

ميزة ماء النيل معروفة مِن تقريرات أُخرى، ولا يُنْكَر أنّه ماء طيّب، وحلو، وصحيّ، ولا يضرّ مهما شُرِب منه، وهذا أستطيع تأكيده أنا نفسى عن خبرة، فعندما مرضت فى جرْجا ومَنْفَلوط، كنت بسبب [٤٤] حرارة الحمّى الشديدة، أحتفظ بإناء الماء بالقرب مِن فمى، ومع ذلك لم يضرّنى بالمرّة.

يُعَبّأ هذا الماء فى أوانٍ فخّاريّة، تسع نحو "برميلين"، يُحْتَفظ بأكثر مِن واحد منها فى كلّ بيت فى أماكن خاصّة فى حجرة الجلوس، ويضعون فيها نوعًا مركبًا مِن اللوز المرّ، فيسحقونه، ويلقونه فيها، ويحركونها جيدًا، وحتّى لو شُرِبَ وهو معكّر، كما فى وقت الفيضان، عندما يكون محمّلاً بالطمى، لا يضرّ بالمرّة. ولكن يجب أن نعرف أنّ "الخليج" عندما يجرى ممتلاً بالماء، يُصاب الناس، وعلى الأخصّ الغرباء الذين يشربون منه، بداء الأكلان، لكنّهم يبرأون منه فى ظرف شهرين.

يبقى لى شىء واحد أقوله [٤٥] عن النيل، وهو: رغم أنّ النيل حول القاهرة زاد سنة ١٦٦٤ ثلاثًا وعشرين ذراعًا، غير أنّه عندما ابتعد مِن القاهرة نحو البحر، بدت

زيادته أقلّ؛ وبالقرب مِن رشيد وهى مدينة بحريّة ارتفع نحو بوصتين فقط، حيث كان يجب بالبداهة أن يكون أعلى. يمكن شرح ذلك أنّ البلد أسفل القاهرة كلّه سهل، وأعلاها ضيّق، والنيل محصور بين الشاطئين، إمّا بين جبال، أو بين تلال مِن الرمال، والماء بسبب ضيق الأرض يبدو محبوساً، وبالتالى يمكنه الارتفاع.

يبدو منظر البلد وهو مغمور بالمياه كبحر حقيقيّ، وتبدو القرى كجُزُر عديدة، فى ذلك الوقت يشعر [السكّان] فى القاهرة أيضًا بنوع مِن المجاعة، بسبب تعذُّر إدخال الميرة، لكون [٤٦] جميع الطرق معطّلة بسبب الماء.

بالنسبة إلى مصبّاته فى البحر، أعرف جيّدًا رأى المؤلّفين العامّ، الذين يقولون إنّها سبعة، ولكن أين هى، وما اسمها، فذلك لم أصل إليه. حسب وجهة نظرى، أصحاب هذا الرأى ذكروا بدون اعتبار القنوات الطبيعيّة والصناعيّة ، مِن المصبّات الثلاثة اثنان فقط صنعتهما الطبيعة، وأعرف أنّ الواحد بالقرب مِن دمياط، والآخر مِن رشيد، والثالث فى منتصف الطريق بين الإسكندريّة ورشيد، ويُدْعى «المعديّة»؛ وقد عبرت منه مرّتين فى منتصف النهار، وهو النهر الذى عبره ليلاً پيترو دِلاّ ڤَلَّه وساندِس، واعتبراه ذراعًا مِن البحر.

الآن علىّ أنْ أتحدّث أيضًا عن شلاّلات النيل، ولكن لكون أهل مصر فى أيّامنا هذه مهملين، [٤٧] حتّى أنّهم لا يكادون يبحثون عمّا يمرّ أمام أبوابهم، ناهيك عن الأشياء البعيدة؛ فإنّى لم أستطع معرفة شيء أكيد. القليل مِن المعلومات التى حصلت عليها مفادها أنّها سبعة، وأنّ الأوّل يبعد عن إبْريم، وهى آخر مدينة فى مصر نحو الجنوب، ثمانية عشر يومًا مِن القاهرة، والآخر بالقرب مِن ميشيو، ونورى وداكاكيا، وهى أماكن فى أراضى سِنّار.

أمّا بخصوص الرأى القائل إنّ ملك الحبشة يستطيع منع النيل، وتوجيهه إلى مسار آخر، لحرمان المصريين مِن المياه، وإنّه لهذا السبب يقدّم له السيّد الأعظم نوعًا مِن الجَعْل كلّ سنة، فهذا ما لم أستطع التأكّد منه، رغم بحثى الدقيق؛ لأنّ الجميع

يعتبرون ذلك اختراعًا مِن الأحباش ؛ لكي يسبغوا [٤٨] على ملكهم نوعًا مِن الأهمّيّة. والأعـجب هـو أنّ الكثـيـرين مِن مـواطنينا فـى أورُوبا يؤكّـدون ذلك، ومِن بين هؤلاء سانْديس الإنجليزىّ، فى رحلته، وبِرنْردو سوريو الفلمنكىّ، فى وصفه للأرض المقدّسة، وكثيرون آخرون.

التقرير حول ذلك، الذى حصلت عليه مِن الأحباش فى روما (رغم أنّنى لم أقتنع كلّ الاقتناع) هو هذا: يزيد النيل فى وقت الأمطار الكبرى فى الحبشة، ولكن لمّا كان مجراه سريعًا، لاسيّما بين الجبال، ولكون ارتفاعه أقلّ مِن ارتفاع مصر، يمتدّ قليلاً فى السهل، ولكنّه لا يستطيع الامتداد عبر البلد كلّه، كما هى الحال فى مصر. يقولون أيضًا إنّ البلد فوق سنّار سهل، وبالتالى يمكن انطلاقه نحو البلاد الغربيّة، التى يسكنها بعض البربر. لقد حاول تحويله [٤٩] ملك الحبشة، بمعاونة البرتغاليين، الذين حصل منهم على عدّة مهندسين، يوم كان جراين، ملك أدل، فى حرب مع الأحباش، وكان الأتراك يهدّدون بالقيام بمذبحة كبرى للمسيحيين المساكين، وفى حالة فشل توسُّلات بطريرك القاهرة. هناك مَن يعتقد أنّ هذا هو سبب قيام السيِّد الأعظم بدفع جَعْل لإمبراطور الحبشة، أىْ بمنح الأحباش امتيازات واسعة، أكثر مِن أيّة أُمّة أُخرى، تمكّنهم مِن التجارة فى الأراضى الخاضعة له، بدون دفع ضرائب أو مكوس. ومِن المحتمل أيضًا أنّه فى وقت إبرام هذا الاتّفاق، منح التركىّ الأعظم هذه المعاملة الخاصّة وهذه الإمكانيّة، كتعبير عن حُسْن النيّة، ومِن هنا نشأ هذا الرأى [الخاصّ باعتقاد تحويل النيل عن مصر].

[٥٠] الفصل الخامس

فى حيوانات مصر وديدانها [وطيورها]

الجمل هو الحيوان الأكثر انتشاراً بين ذوات الأربع فى مصر، وهناك أعداد كبيرة جداً منه، وبسعر منخفض، لاسيّما فى مصر العليا، حيث يمكن شراء الأفضل منها [بسعر] ٢٠ أبوكلب، أو دالِّر هولنديّ برسم الأسد.

يستخدمون هذه الحيوانات لحمل الأثقال؛ لأنّهم لا يستخدمون لا عربات الجرّ ولا المركبات، ولأنّه حيوان مرتفع، يدرّبه العرب، عندما يريدون تحميله، على القعود على قوائمه، وبعد تحميله بما يكفى (وهذا ما يشعر به بغريزته الطبيعيّة)، ينهض مِن تلقاء ذاته. عند سيرها فى قافلة، يربطون أحياناً عشرين منها بذيولها، فى صفّ واحد، وفى العادة يتقدّمها عربىّ [٥١] على حمار، أو يركب على الجمل الأوّل؛ لكىْ يحافظ على حسن نظام الصفّ كلّه. ويُزيَّن الجمل الأوّل ، عادةً ، على رأسه وعلى أحماله بريش النعام، وبأجراس صغيرة حول الرقبة، وصاجات حول الركب، وبالتالى عندما تلتقى [بقوافل] أُخرى، تستطيع سماعها، فتفسح الطريق فى الوقت المناسب.

هناك أيضاً هُجُن سريعة جداً، بها يستطيع العربىّ فى أربعة أيّام الانتقال مِن القاهرة إلى أورشليم، وهى رحلة تستغرق، فى العادة، خمسة عشر يوماً.

هناك كذلك مِن أمهر الخيول فى العالم، وبغال، وحمير سريعة جداً، وهذا النوع مِن دواب الركوب مرغوب جداً فى هذه النواحى، حتّى أنّه لا يخرج أحدٌ أبداً من بيته لبعض شؤونه، سواء كان رجلاً أو امرأة، إلاّ ويمتطى صهوة حمار، [٥٢] ويجرى عربىّ بجانبه.

ثمّة أيضًا عدد كبير من الجاموس، والأغنام ذات الذيول العريضة، والماعز ذات الشعر الأحمر فى الغالب، والآذان الأطول من الرأس. هناك كلاب، وقطط، منها أعداد كبيرة فى بعض البيوت (وفقًا لما رأيت)، حيث يحتفظون بأكثر من مائة، ولا يمكن تفسير [وجود] هذا العدد الهائل من القطط، إلاّ بالمحافظة على إكرامهم القديم لهذه الحيوانات.

هناك أيضًا حيوانات متوحّشة قليلة، لكن بالقرب من الأهرامات رأيت ذئبَين. ليس هناك لا دببة، ولا أفيال، ولا نمور، إلاّ القادمة من الخارج، ولا حتّى خنازير، إنْ لم تأتِ من القسطنطينية، وفى هذه الحالة يُباع لحمها سرًا للمسيحيين.

فى الطيور

إنّه لشىء بديع أنْ نرى [٥٣] هذا العدد الكبير من كل نوع من الطيور، حول النيل، وتقابل فى السفر الآلاف معًا، ويمكن صيدها بالبنادق. منها البجع، وهو أكبرها، وهناك أوز وكلّ نوع من البط البرىّ، والكراكى، والبلاشين، واللقالق، وطيور أُخرى، لا أعرف التعبير عن أسمائها باللغة الإيطاليّة. بين الصخور بالقرب من النيل حمام برّىّ، وفى الحقول الحجال، ودجاج الأرض، واليمام، والزرازير، [وطيور] أخرى. فى البيوت يربّون الأوز المنزلىّ، والدجاج، والحمام بأعداد كبيرة جدًا. نجد بخلاف ذلك دجاجة الفرعون، وهى كبيرة بحجم النسر، تحطّ فى العادة على البيوت، كما شاهدت فى القاهرة، وهى بكماء، وهناك اعتقاد أنّها تعمّر ألف عام.

تجد أيضًا نسورًا، وصقورًا، وحدائات، وطيورًا تسمّى [٥٤] الكسولة، والسنونو، نجدها طوال العام، والبوم وأمّ قويق، والعصافير، وعصافير التين، والقنابر، والسلوى، والسمّان، وما أشبه ذلك. بالإضافة إلى الطيور المذكورة، هناك أيضًا أنواع أُخرى عديدة، لاسيّما فى قصور كبار القوم، أىْ النعام (وقد رأيت اثنتى عشرة منها فى فناء القصر، حيث يقيم الباشا)، وأنواع أُخرى تُجْلَب من البلاد المختلفة، وعلى الأخصّ من الصحراء العربيّة.

كذلك هناك من الحشرات أعداد كبيرة كالجنادب ذات الحجم الكبير، وتسمّى بالعربيّة «فرس محمّد»، والوزغ، والعناكب الضخمة، التى كثيرًا ما نجدها على الأسرّة، وعقارب ذات أحجام غير عادية. كنت مرّةً ماشيًا فى مدينة جرْجا، فرأيت عربيًا يحمل [٥٥] أكثر من مائة منها مربوطة بحبل، وكان قد جمعها فى ذلك الوقت، وعلّقها على بابه لبضعة أيّام، ولا أعرف لأيّ سبب. هناك كذلك ثعابين وحيّات يُعَزِّم عليها العرب، ويجمعونها كلّها معًا، ثمّ يقتلونها لاستعمالهم الخاصّ. هناك أيضًا اليرابيع، صغيرة وكبيرة وبأعداد كثيرة، و«النمس»، ويدعونه يربوع الفرعون، وحجمه كالثعلب، ولونه كاليربوع. هناك أيضًا الحرباء [البُرْص]، وكنت أحتفظ بواحدة منها فى حجرتى لأكثر من شهر، ولم ألحظ أبدًا أنّها تأكل. ثمّ فى وقت الصيف لا يمكن تجنُّب النموس، والنمل، والذباب، والزراقط، وحيوانات أُخرى أكثر إزعاجًا.

يعجّ النيل بالأسماك الجيّدة، ويفوقها جميعًا سمك قشر بياض وهناك ما يزن منها ثمانين رطلاً. هناك أيضًا [٥٦] فرسان النهر، ولكنّى لم أرها.

عن التماسيح أقول فقط (كما هو معروف)، إنّ هناك عددًا كبيرًا منها فى النيل، وتسبّب ضررًا كبيرًا من القاهرة إلى أعلى، ولكن لا شيء من ذلك من القاهرة إلى أسفل؛ لأنّه (على رأى العرب) أحد أوليائهم أبعد الخطر عنهم. يقوم القرويون بقتل الكثير منها، ويعلّقون رؤوسها وفمها مفتوح على أبواب منازلهم، أمّا الجلد فيستخدمونه، إمّا لتغطية الأبواب، أو كزينة، أو حبًا فى الغرابة، لا أعرف؛ لأنّ الأمر شائع جدًا فى أحياء القاهرة وقرى مصر.

[٥٧] الفصل السادس

فى أنواع الثمار، والأشجار، فى الخضرة، والمعادن، والتوابل التى تنمو، ونجدها فى مصر

النخلة هى الأكثر انتشاراً بين الأشجار، ومنها أحراش ممتدّة، وثمارها مِن كلّ نوع؛ كالبلح الأحمر، والطويل، والأحمر المدبّب، والبلح الأصفر، وأنواع أخرى بريّة كثيرة، أفضل [أنواع] البلح الجاف يأتى مِن «الواح» [الواحة الخارجيّة، أو الخارجة]، وهى أرض فى مصر العليا، وتبعد عن «أسيوط» (وهى مدينة شهيرة جداً فى مصر العليا) ثلاثة أيّام داخل البلد، ولكون هذه [الأنواع] مغذّية وحلوة، تبدو الأنواع التى تنمو فى أماكن أُخرى، بالمقارنة بها صغيرة، وفجّة، ومُرّة.

فائدة النخيل كبيرة جداً. [٥٨] تُستَخْدَم جذوعها لسقف البيوت، ومِن أوراقها تصنع السلال والقفف والمكانس، يُستَخْدَم جريدها الأسمك لسقف البيوت، ومِن الأدقّ تصنع الأسرّة ومواطىء القدم.

تؤكَل الثمرة، ويُصنَع منها أيضاً الخلّ، والعَرَق. فى داخل الشجرة لبّ أبيض، طرىّ، يُؤكل، وطعمه كطعم اللوز. الساق [السباطة] المعلّق عليها البلح يُضْرَب بخشبة على شكل القنب، وبعد تجهيزه تُصنَع منه الحبال العادية وحبال الصوارى. نواة البلحة تُطْحَن، وفى الأسفارالطويلة يقدّمونها كطعام للجمال. «النبقة» هى أيضاً شجرة نجدها فى مصر بأسرها، وثمرتها تشبه ثمرة الزعرور. هناك شجرة «السنط»، التى تُصنَع مِن ثمرتها الفخاخ، وهناك شجرة القرفة، والجمّيز (وتُسَمّى ثمرته بالعربيّة

«جمّيز»، وبالإيطاليّة تين [٥٩] الفرعون)؛ و«التمر الهندى»، وشجرة السرو، وما أشبه ذلك.

هناك أيضًا أشجار تين شبيهة بأشجار بلادنا، والرُمّان، وتين آدم، والتوت الأسود، والأبيض، والليمون، والبرتقال، وشجر الأرْز بأعداد كبيرة، لكن أفضلها أشجار فُوّة ورشيد، ولا تخلو أشجار الزيتون، والدُرّاق، والمشمش، لكنّها ليست حسنة المذاق كأثمار إيطاليا. هناك نقص فى أشجار السفرجل، والكمّثرى، والتفّاح، وتُستَورد من دمشق. ولا تنمو أشجار الكرْز، ولا الخوخ ولا أبوفروة، ولا الجوز، ولا البندق، لكنّها تُستَورد من بلاد أُخرى، وعلى الأخصّ البندق من مرسيليا. فى الجنائن تجد هنا وهناك الكروم، وكثيرة أمام قصور كبار القوم، وعلى الأخصّ فى القاهرة. هناك أيضًا [حقول مغروسة] بكاملها بالكروم فى بعض [٦٠] القرى القليلة حول الفيوم، ولكن هؤلاء الناس لا يعرفون الطريقة الصحيحة لصناعة النبيذ؛ لذلك فهو رديء، وعلى الأكثر يشربه اليهود فى القاهرة، يشترونه بكمّيّات كبيرة، ويسمّونه نبيذ الشريعة؛ لأنّ نبيذ المسيحيين محرّم عليهم، تحت طائلة الحرم.

ثمّ لا نعجب من الكمّيّة الكبيرة للقمح، والأرز، وكل نوع آخر من أنواع الحبوب، والخضراوات، ومع ذلك لاتنتج مصر الجاودار، ولا الشوفان، ولا الفاصولية، ولا الفول الكبير الحجم.

بخلاف الكتّان الممتاز، والقطن، تزخر مصر أيضًا بالخضرة، وعلى الأخص "البرسيم"، وثمار البساتين الأخرى كالسلاطة، والخسّ، و«الملوخية»، والشمرة، وأنواع كثيرة من الكرنب، والفجل، واللفت، والكوسى، وأنواع مختلفة من الشمّام، والبطّيخ [٦١] وهو طيّب المذاق جدًّا، وينضج فى مايو، عندما يبدأ الحرّ الشديد. هناك أيضًا كمّيّات كبيرة من الخيار، والأرض شوكى، والبصل، والثوم، والكرّاث، و«القلقاس»، المسمّى باللاتينيّة "كولوكسيا"، وثمار أُخرى مشابهة.

هناك على الأخصّ وفْرَة من البهارات، كالفلفل، والأفيون، "والزعفران"، والسمسم، و"حبّ الصودا"، وقصب السكّر، وأوراق السنا، والخشخاش، والقرفة.

[المعادن]

من المعادن هناك في مصر كمّيات كبيرة، وكذلك من ملح البارود، والنطرون، الذي يُسْتَخرج من بريّة القدّيس مكاريوس. ويقولون بوجود الزمرّد فوق جرْجا، والماس حول الإسكندرية، ورغم أنّ هذه ليست جواهر حقيقيّة، فهي مع ذلك جميلة جداً في المظهر، وتُباع بثمن زهيد جداً؛ لأنّهم لا يعرفون صقلها.

[٦٢] في الماضي كانت مصر تزخر أيضًا على حدود الحبشة بمناجم الذهب، إذ يذكر ذلك ديودورس الصقليّ في كتابه الأوّل.

بخلاف المعادن المذكورة تنتج مصر، حول طيبة وإسْنا، الرخام من أكثر من نوع؛ كالبرفير، والألبستر، والأوفيتي، والجرافيك، والجرانيت، ومن هذا الأخير كان المصريون القدماء ينحتون المسلاّت، التي سنتحدّث عنها باستفاضة في مكانه.

الفصل السابع

فى تنوّع ثمار السنة بأسرها حسب كلّ شهر

يبدو لنا مِن المفيد أنّ نبدأ حديثنا مِن شهر سبتمبر، حسب عادة مسيحيى ذلك البلد، الذين يبدأون سنتهم بالتاسع والعشرين مِن أغسطُس، لكون [٦٣] هذا الفصل يقابل الربيع عندنا، وهذا سبب وجيه لكى نبدأ بهذا الشهر.

هناك إذَنْ فى سبتمبر ورود وياسمين مِن كلّ نوع. فى هذا الشهر يبدأ كذلك البلح، ويُباع على هيئة زباطات، وتزن الواحدة منها ثلاثين رطلاً ونيّف. تُعلّق فى الحجرات إلى أنْ ينضج البلح؛ ويكون فى تلك الساعة طيّب المأكل، وقد تجد مِن [البلح] الطازج حتّى آخر نوفمبر. وتجد كذلك فى الشهر المذكور تين الفرعون، والرمّان، والحوامض. مِن أكتوبر يبدأ الكرنب، والأزهار، والبصل. فى آخر نوفمبر لدينا «البرسيم»، وهو نوع مِن النبات ذى الثلاث ورقات، وهو غذاء كامل للبهائم، ولا تقاد الخيل عادة إلى المياه لبضعة شهور، طيلة [٦٤] تغذيتها على هذا المرعى، يظلّ هذا النبات أخضر إلى شهر أبريل، ويقصّ خلال هذه الفترة ثلاث مرّات، ومِن قصّة المرّة الأخيرة، تُعْمَل حزم، وتجفّ، وفى الشتاء تُقَدّم للبهائم بدلاً مِن التبن، الذى لا يتوفّر فى مصر. ثمّ تبدأ فى الظهور «العجوة» (أىْ البلح الجديد المضغوط)، والفول الصغير، والسلاطات، ولا سيّما الخسّ، والهندباء، والفجل، واللفت. فى بداية ديسمبر نجد الزبدة الطازجة، وجبن الجاموس، هذا النوع مِن الجبن أبيض كالآخر الذى يدعونه «جبن حلوم»، ولكنّه أحلى، والآخر على العكس مالح جدًا. فى آخر يناير تخضرّ الكروم. ونحو نهاية فبراير تبدأ عادةً سنابل الشعير فى الظهور. يحمل مارس

الحمّص، الذى ينتهى فى آخر أبريل، تجد فيه كذلك الأرض شوكى. فى أبريل ينضج الكتّان، [٦٥] ويبدأ حصاد القمح. فى مايو ينضج المشمش، والدُرّاق، والشمّام، والبطّيخ، واليقطين، والخيار. تنضج فى هذا الشهر أيضًا القرفة، وتجد حتّى ذلك الوقت الورود، وكلّ نوع من الأزهار. فى بداية يونيو يظهر العنب، ويبقى طازجًا حتّى منتصف أغسطُس. فى يوليو وأغسطس تستمرّ الثمار المذكورة؛ ولكن تجد خضرةً وأزهارًا قليلة، إمّا لأنّ كلّ شىء يجفّ بسبب حرّ الشمس الشديد، أو لأنّ ماء النيل يغمر الحقول كلّها.

[١] تقرير الحالة الحاضرة لمصر

الجزء الثانى

فى الحكم السياسى

الفصل الأول

فى باشا مصر، وفى بلاطه

يُعْتَبَر الباشا، كما هو معروف، الرئيس الأعلى، لا للقاهرة حيث يقيم فحسب، بل لمصر العليا والسفلى أيضًا، والأملاك الخاضعة لمصر. [٦٧] يرسله السيِّد الأعظم، وهو نفسه الذى يقيله أيضًا، كلّ ثلاث سنوات فى العادة وأحيانًا قبل ذلك، على نحو ما يراه ضروريًا.

عندما يصل الباشا الجديد، مِن القسطنطينيّة إلى القاهرة؛ لكىْ يتولّى منصبه، يدخل [القاهرة] بموكب عظيم، لا يحسد عليه موكب أىّ ملك فى العالم. يتقدّم إليه سائر البايات، والضبّاط، والجنود، سواء الفرسان أو الرجّالة لاستقباله، على بُعْد ثلاثة أميال، كلّ واحد حسب درجته، ووظيفته؛ وهم يحملون الأسلحة، ويرتدون الملابس الفاخرة، التى تثير عجب مَن يراها. هذا الموكب مِن أجمل المناظر، التى يمكن لأجنبىّ أنْ يشاهدها فى القاهرة.

رجال بلاطه هم التاليون: ١) «الكخيا»، أى القائمقام. ٢) «الخازندار»، أى حافظ الخزينة الخاصّ. ٣) عدّة [٦٨] مترجمين. ٤) «القابجيباشى»، أىْ كبير البوّابين، الذى يرأس ثلاثين أو أربعين شخصًا. ٥) «المِكْتارباشى» [المِهْتارباشى]، أىْ رئيس العازفين، ٦) «الآجيباشى»، أو كبير الطهاة. ٧) «سو بيطا الباشا»، أى غلمان الباشا، وهم اثنا عشر شابًا، تتراوح أعمارهم بين العشرين والرابعة والعشرين. ٨) «المَطَراشينى»، وهم ستّة انكشاريّة، يتبعون الباشا عندما يخرج.٩) «الآلاى جاوشى»، وهم ثمانية أشخاص يركبون أمام الباشا، عندما يخرج، وينادون بإفساح الطريق،

ويحمل كلٌّ منهم طبلة صغيرة من الجلد، يقرع عليها. ١٠) «الكيلارجيباشي»، أي كبير حُفّاظ الأطعمة. ١١) «الاكِمكْجيباشي»، أيْ فرّان القصر؛ و [وظائف] أُخرى أقلّ أهمّيّة.

كان باشا ذلك الوقت يُدْعى «عُمَر»، وبدأ حُكْمه [٦٩] نحو نهاية يونيو سنة ١٦٦٤، وكان سالفه «إبراهيم باشا»، الذي سنخبر عنه في الفصل الثامن ، في هذا الجزء الثاني.

الفصل الثانى

فى عدد جنود مصر ونوعيتهم

ينقسم جيش مصر كلّه إلى سبع فرَق [أوجاقات]، على رأس كلّ منها آغا؛ وهى التالية: الفرقة الأولى «السپاهيّة، والثانية «الانكشاريّة»، والثالثة «العزبان»، الرابعة «الجاوشيّة»، والخامسة «المُتَفرِّقة»، والسادسة «الجيباجيّة»، والسابعة «الطُبْجيّة».

«السپاهيّة» هم ركّاب الخيل الخفيفة، ويُوزْعون على ثلاث تجريدات [أورطة]، أىْ تجريدة السِنْجَق الأخضر، والأحمر، [٧٠] والأصفر، وتأتمر كلّ واحدة بإمرة آغا. سلاحهم حربة قصيرة، وقوس بسهام، بالإضافة إلى السيف. يُعْرفون ويتميّزون عن باقى الجنود بالعصابة الملفوفة بطريقة خاصّة حول القلنسوة، وسراويلهم الكبيرة من الكتّان الأحمر، وطولها خمسة أذرع، وتصل إلى القدم؛ ويصل عددهم فى مصر بأسرها إلى تسعة آلاف.

«الانكشاريّة» هم الأكثر فخراً بين الجميع، وبما أنّهم الأكثر إقداماً من الآخرين، فهم كذلك الأكثر عجرفة ووقاحة، إنّهم جنود مُشاة لا يحترمون أحداً، ولا يجرؤ أحدٌ على إهانتهم، مَن يكترى واحداً منهم لحراسته، يمكن أنْ يأمن مائة تركىّ آخر. يكمن سبب هذه السلطة والعجرفة فى [٧١] اتّحادهم الكبير، حتّى أنّ مَن يهين واحداً منهم، مهما كان حقيراً، يصعب عليه كثيراً الخلاص، ولو كان الباشا نفسه؛ وكمثال على ذلك، منذ سنوات قليلة، يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٦٦٤، لأسباب تافهة، قاموا بخنق «مراد كخيا»، و«درويش كخيا»، وكانا وقتئذٍ صاحبى سلطة خطيرة. وكذلك يوم ٨ نوڤمبر، أحد الأُمراء ويُدْعى «ويسباى»، وكان «قائمقام» (أىْ نائب الباشا) لمرّتين فى

القاهرة، قام بضرب أحد غلمانه على رأسه (كان قد ربّاه وجعله انكشاريًا)، فكان [لهذه الضربة] أثر لا يمكن تصوُّره، وعلى إثر الضربة نفسها مات الغلام، واضطرّ [سيِّده] للهرب. ويوم ٧ ديسمبر قاموا كذلك بنفى ثمانية «شورباشيّة»، أىْ قباطنة، [٧٢] و«كاشف»، أىْ والى مقاطعة، وبعد أنْ أجبروهم على الإبحار إلى منفاهم، أمروا بأنْ يُرْموا فى البحر. هدَّدوا مرارًا عديدة الباشا نفسه بأنّه سيلاقى هو أيضًا المصير ذاته يومًا ما، بل فى الفتنة الأخيرة التى قام بها الانكشاريّة فى القاهرة، تمادوا فى عجرفتهم، حتّى قالوا إنّهم لا يعتدّون بسلطة مصر كلّها، وبالتالى لا يخافون مِن العظماء والجنرالات كلّهم معًا. أجلْ، إنّهم فى الحقيقة صفوة العساكر، مقْدامون، وحسنو التدريب على السلاح؛ ولذلك يُعْهَد إليهم بحراسة القلعة، والمدينة بأسرها، وباقى حصون البلد، لا بلْ فى كل حىّ رئيسىّ يُتْرَك اثنان منهم لحفظ الأمن، أضف إلى ذلك، القناصل، وكذلك أيضًا الشخصيّات الأخرى، وكبار تجّار الفرنج يحتفظون [٧٣] بواحد منهم فى البيت.

يُعْرَفون مِن عصابتهم البيضاء حول القلنسوة، يلفّونها بطريقة مغايرة لباقى العساكر، ومِن قلادة جبّتهم المصنوعة مِن الحرير المُنَتّر [الدمسقى] البنفسجىّ. عددهم فى مصر كلّها، نحو خمسة آلاف، وإذا أُضيف المنتسبون إليهم، الذين يحملون ذات العلامة، يبلغ عددهم عشرة آلاف.

«العزبان» هم كذلك جنود مُشاة، وإخوة حميمون للانكشاريّة، هذه فرقة عسكريّة أقدم بكثير مِن تلك [الانكشاريّة]، وفيما يخصّ الرداء هناك فارق ضئيل، أو لا فَرْق بالمرّة، بالإضافة إلى أنّ هؤلاء لا ينحدرون مِن مسيحيين، ولا يُرَبّون بنظام قاسٍ كأولئك، كزىّ [مميّز] مِن عادتهم ارتداء حزام مِن الجنفاس [الحرير الخفيف جدًا] الأزرق، عددهم نحو أربعة آلاف.

«المُتَفرِّقة» جنود موسرون، [٧٤] القسم الأكبر منهم تُجّار، يُجْبَرون على الخدمة، كلّما دعت الحاجة، وهم مِن الفرسان. سلاحهم الحربة، وقد يصل عددهم إلى ثمانية آلاف. يُتّخَذ الأغوات مِن هذه الفرقة فى العادة.

«الجاوشيّة» هم أيضًا عساكر فرسان، وسُعاة الباشا، يحملون إلى الناس أوامر الباشا، ويقدِّمون خدمتهم لكلّ مَن يدفع لهم. لهذا المنصب اعتبار كبير، وفائدة للهبات التى تُجْنى لكن يُشْتَرَط أنْ يملك طالبها ناصية كلتا اللغتين العربيّة والتركيّة، ولاسيّما أنْ يستطيع قراءة وكتابة التركيّة.

ينقسمون إلى عشرة "كپورالي" [مجموعات، أو أورطة]، كلّ يوم تقوم مجموعة بحراسة القلعة، وحول غرف الباشا، حيث [٧٥] تُقَدَّم لهم العلوفة. يربطون عصابتهم حول القلنسوة بطريقة خاصّة بهم، لكيْ يتميّزوا عن الآخرين، يرتدون كذلك السراويل الكبيرة على غرار "السپاهيّة"، ومِن هؤلاء هناك ألف وخمسمائة فقط.

النوعان الآخران مِن الجنود لا يدخلان فى العدد. «الطُبْجيّة»، أىْ راجمو المدافع، وهم بين ثلاثمائة إلى أربعمائة، و«الجيبجيّة»، وهم الذين يعدّون البارود، وعددهم كعدد الطُبْجيّة.

كلّ هؤلاء الجنود رجال أقوياء، طوال القامة، ومنظرهم مهيب، ملابسهم فضفاضة، ومسلّحون، ودائمو التدريب على السلاح، وبالتالى يبدون فى عروضهم العسكريّة «لا كمجرّد عساكر، بل كأساتذة جيوش»، كما يقول يُسْتينُس فى الكتاب ١٠، فى الفصل ٦ مِن [مصنَّف] "مقدونيى الإسكندر الأكبر".

الجيش بأسره الذى يمكن أن تجده [٧٦] فى مصر، أىْ الجنود، يمكن أنْ يصل عدده إلى ثلاثين ألف رجل، أضف إليهم العرب [البدو] المنتشرين فى البلد، الذين يعيشون تحت الخيام، والذين بمفردهم يمكن أنْ يصل عددهم إلى مائة ألف.

الفصل الثالث

فى بعض الأمور الخاصة الأخرى المتعلِّقة بالفصل السابق

تقع قلعة القاهرة نحو "الشرق" على تلّ صغير، يطلّ على المدينة بأسرها، يُدْخل إليها فقط مِن ممرّ منحوت بالمعاول فى الحجر الحىّ. إنّها كبيرة جداً، وممتلئة بآثار قديمة باهرة، رغم أنّها خربة كثيراً فى الداخل.

لا أعتقد أنّها مزوّدة بمدفعيّة كبيرة، لأنّى على ما سمعت عدّة مرّات، ولم تتعدَّ أبداً الإحدى والعشرين طلقة، وبالمثل [٧٧] قلعة الإسكندريّة مزوّدة بكلّ نوع مِن المدفعيّة، والدروع، والبنادق، والحراب، والقذائف، والقنابل، والتحصينات، وما أشبه ذلك.

فى قلعة القاهرة (وفقًا لما سمعت)، للوفرة الكبيرة لملح البارود، فى مصر، يُصْنَع كلّ سنة خمسمائة ألف رطل مِن البارود، يُصَدَّر القسم الأكبر منه إلى القسطنطينيّة.

لا أذكر قَطْ أنّى رأيت أفضل مِن بنادق مصر. حديدها كامل الصُنْع، وعلى شكل موجات طبيعيّة، فتبدو كأنّها عروق مِن الفضّة، يُسْتَورد هذا الحديد مِن دمشق، وغلاف [البندقيّة] بالمثل مِن الخشب الممتاز، المطعَّم بالعاج. يصل ثمن البندقيّة المغطّاة بشفرة الفضّة فى العادة إلى ثلاث وثلاثين قطعة مِن الثمانية [ريالات]. تزن الطلقة ٢٥ درهمًا؛ ومع هذا الوزن، رأيت فى الرحلة، [٧٨] التى قمت بها مِن مَنْفَلوط إلى جِرْجا على النيل أنّ الانكشارىّ الخاصّ بى قد أصاب تمساحًا، وهو فى المركب، وبدون أنْ يسند البندقيّة، ومرّة أخرى قتل أُوزةً برّيّة على بُعْد خمسمائة قدم.

العزبان والانكشارية عادة جارية، عندما يخرجون فى تجريدة ما، يحملون شارات، وجلود النمور. يطول الحديث عن سيوفهم الثمينة، وأقواسهم، وسهامهم، والأنواع المختلفة من الطبول، وما أشبه ذلك، وقد يكون مملاً ؛ لأنّ كُتّابًا آخرين كثيرين تحدّثوا عنه.

هناك ، أيضًا ، قلعة حصينة فى أبوقير، واثنتان أُخريان فى رشيد عند مصبّ النيل، الواحدة بإزاء الأخرى، وواحدة فى السويس، وعلى طريق مكّة على مسير كلّ ثلاثة أيّام، تجد واحدةً يحرسها الجنود، الذين يحصلون على علوفتهم من القاهرة عن طريق السويس، وجدّة.

[٧٩] الفصل الرابع

فى عدالة القاهرة ، وأمور أخرى متعلّقة بها

عدالة القاهرة – إنْ كانت تستحقّ هذا الاسم – يجريها المجلس الأعلى لمتقدّمى المملكة، يدعونه «ديوانًا». يليه «قاضى العسكر»؛ لأنّ الوظيفة الأولى لهذا هى أنْ يحسم القضايا والمنازعات، التى تنشأ بين هؤلاء [العسكر] كلّ يوم. يعقد مجلس قضائه فى «البزار» (أىْ السوق)، ويُعْرَف بسهولة؛ لأنّ المبنى أعلى بكثير من سائر المبانى المحيطة به. تحت إدارته ٢٤ مجلس قضاء موزّعة على المدينة، حيث يجلس القضاة فى حوانيت مفتوحة على مرأى [٨٠] الجميع، ويفحصون، ويقرّرون أسباب المتنازعين، إذا عبر أمامهم مسيحىّ أو يهودىّ على حصان أو حمار، ولم يترجّلا، يجرى ضربهما بقسوة؛ ولذا يلزم عليهما العبور سيرًا على الأقدام، ويقولون إنّ هذا يتمّ احترامًا للعدالة؛ ولذا يجب عليهما دائمًا مرافقة عربىّ، أو تركىّ، كلّما خرج أحدهما من البيت، لكى يكون معه شخص على دراية بالطرق، ويعرف هذه العادات.

هناك بخلاف ذلك «المفتون» الأربعة، ولهم مجلس قضائهم (كما يقال) فى «جامع الأزهر»، أهمّ جوامع القاهرة. يُسمّى أوّلهم «الشيخ البكرىّ»، وهو رئيس ديانة الأتراك [المسلمين]، وسائر رجال الدين المحمّدىّ [الإسلامىّ] فى مصر، وهو رجل جزيل الوقار، قد يصل دخله فى اليوم إلى مائة وخمسين قطعة من الثمانية [ريالات]. عن [٨١] الثلاثة الآخرين لا يلزم الحديث، لأنّهم بالنسبة إلى هذا أقلّ منزلة كثيرًا. تُعْرَض على هؤلاء الأمور ذات الأهمّيّة، سواء الروحيّة أو الزمنيّة، كلّما أراد الأتراك التصرّف

بعقلانيّة، وترك العدالة تأخذ مجراها، وينطقون بالحُكْم؛ لأنّهم يُعْتَبَرون كعارفين بكلا القانونَين [الروحىّ والزمنىّ].

يرأس «الصوباشى» مجلس قضاء آخر. وهو يجول راكبًا ليلاً ونهاراً، فى شوارع المدينة، لمراقبة إنْ كان هناك أىّ سَجَس، أو شِجار، أو سرقة، أو تآمُر، أو ما أشبه ذلك؛ لكىْ يعالج الأمر سريعًا. يسير أمامه جلاّدان يحملان سوطًا مِن الجلد الغليظ، ويجلدان جميع المسيحيين واليهود، عندما يقابلانهم راكبين على الحمير، إنْ لم يترجّلوا سريعًا. أستطيع تأكيد ذلك عن خبرة، لأنّى [ذات مرّة] وأنا عائد مِن عند بطريرك الأقباط، الذى تباحثت معه فى بعض الأمور [٨٢]، وبما أنّى لم ألحظ مرور الصوباشى، قام أحد هذين الجلاّدين بتوجيه ضربة قويّة لى، عانيت منها لمدّة شهر، وكنت محظوظًا لأنّه لم يشفع الضربة بأُخرى؛ لأنّهم يضربون بشراسة، تؤدّى بسهولة إلى الموت. يسير خلف هذا [الصوباشى] عشرة انكشاريّة يحملون أسلحة ناريّة، ونحو ثمانين عربيًا بعصى غليظة على أكتافهم، طويلة مقدار طول الإنسان، ورؤوسها مِن حديد.

عند الضرورة ينطق [الصوباشى] بالحُكْم «مِن ساعته»، وهو واقف، بدون إجراء محاكمة: يأمر بقطع الرؤوس، والأيدى؛ يأمر بالوضع على الخازوق، والشنق، وسلخ الجلد، والضرب بالقضيب على أسفل القدمين؛ يأمر بالرمى فى السجن، ودفع الغرامات، يعالج كلّ واحد كما يحلو له، بدون فحص حيثيّات القضيّة.

قائمقامه هو «الأوده باشي»، [٨٣] أىْ أستاذ الحجرة، وعند غيابه، يقوم بمهام المنصب، بسلطة مماثلة. ويقوم الانكشاريّة بتسوية الأمور اليسيرة فى أحيائهم، ولهم بالمثل [حقّ الإلقاء فى السجن]، والأمر بدفع الغرامات، وفرض الضريبات.

غير أنّ الفرنج لا يخضعون لحُكْم عدالة الأتراك، لكن القناصل يحسمون خلافاتهم، إلاّ إذا رفع أحدٌ دعواه إلى هؤلاء القضاة المذكورين سابقًا.

كلّ مـا قلناه عن سلطة بـاشـا القـاهرة، وطريقـة حكْمـه، ينطبق أيضًـا على باى جرْجـا، إلاّ أنّ هذا يعـتبر باشا القاهـرة كرئيـس له. بذات طريقة حكْم القاهرة تُحْكَم أيضًا باقى مدن مصر، مع أنّ هؤلاء الحُكّام يعيشون بمستوى أقلّ ترفًا مِن أُولئك.

[٨٤] الفصل الخامس

فى الديوان

نعنى بهذا اللفظ مجلس القضاء الأعلى، المنعقد مِن الشخصيّات الرئيسيّة لمصر بأسرها، بهدف حسم المنازعات، وفحص القضايا الأكثر خطورة، وكذلك للتداول حول الشؤون العامّة. هناك نوعان منه، أىْ الديوان الكبير والصغير. يُسمّى كبيراً عندما يكون الباشا حاضراً، ويلتئم كلّ يوم خميس، وأحد. ويكون صغيراً فى غياب هذا [الباشا]، ويلتئم فى باقى أيّام الأسبوع، باستثناء الجمعة والسبت، حيث لا يُعْقَد فيهما ديوان أبداً. مكان انعقاده فى ردهة طويلة فى القلعة.

كبار أعضاء مجلس المشورة هذا، أو مجلس القضاء، هم بعد الباشا:

[٨٥] ١) «الكخيا»، أىْ قائمقام الباشا، وهو باى.

٢) «شهر حوالة»، أىْ رئيس سائر العاملين فى مكوس الأقاليم.

٩٣ «كاتب الديوان»، أىْ كبير الكُتّاب، الذى يكتب «البوجُرديات» [بيوردبجات، المراسيم]، أىْ أوامر الباشا.

٤) «الصرافباشى»، أىْ كبير ملتزمى الخزينة، وهو يهودىّ.

٥) «المُهُرْدار»، وهو الذى يختم أوامر الباشا.

٦) «مُقاتجى»، كبير المحاسبين.

٧) «المقابلجى»، مراجع الحسابات.

٨) «الروزْنامجي»، الذى يتولّى دفتر سائر جنود مصر، وكتّاب سائر عوائدها.

٩) «آغا بيطا بيت المال»، أىْ الآغا الذى يحفظ ممتلكات المنفيين، والموتى، ويرفع الحساب إلى المجلس.

١٠) «أمير الحجّ»، أىْ الباى، الذى [٨٦] يقود القافلة المتوجِّهة إلى مكّة.

كلّ هؤلاء الموظّفين أغلبهم مِن الأمراء، وبالتالى ينضمّ إليهم البايات الآخرون (أىْ الأمراء)، مع أنّهم ليسوا أصحاب وظيفة، ولكن مِن النادر أنْ يحضروا كلّهم، إنْ لم يستدعهم الباشا صراحةً.

الفصل السادس

فى الباى . وفى بلاطه

يقابل الباى لدى الأتراك درجة الأمير لدينا، وهم رؤساء مدى الحياة لبعض المقاطعات، والأقاليم. يُرَقّون إلى هذه الكرامة، إمّا مِن قِبَل السيِّد الأعظم ذاته، أو مِن قِبَل الباشا، ويدفعون مِن أجل ذلك خمسين كيسًا مِن الدنانير، وهو ما يوازى ٤١١٥٠ قطعة مِن الثمانية [ريالات].

[٨٧] منذ بضع سنوات، كان يمكن الحصول على الكرامة المذكورة بخمسة وعشرين كيسًا، ولكن بما أنّ جشع التركىّ لا يرتوى، لم تَعُدْ للكرامات لديه اليوم سعرٌ محدَّد، بل تذهب لمن يدفع أكثر بين المتنافسين.

عددهم فى مصر غير محدَّد، فهم أحيانًا أكثر، وأحيانًا أقلّ، قد يكونون فى الوقت الحاضر عشرين فى الوجه القبلىّ، وعشرة فى البحرىّ.

أمّا بخصوص المكسب الذى يأتى مِن هذه الكرامة، فهو متغيِّر؛ لأنّ الواحد قد يكسب مِن إقليمه كيسًا فى الشهر، والآخر أكثر، والآخر أقلّ، حسب حجم [الإقليم]، أو كثافة سكّانه، أو خصبه. مَن لا يكسب مِن دُوَله [أقاليمه] موارد كثيرة، [٨٨] تكفى معيشته، يلزم عليه القيام [بوظائف] أُخرى فى المجلس.

واجبهم هو أنّهم على كلّ أربعة آلاف "أقچة" مِن دخلهم، يُطالبون وقت الحاجة بخدمة السيِّد الأعظم برجل على حصان، قوىّ البنية.

يحتفظ الباى فى بلاطه بالأشخـاص التاليين: الأوّل هو «الكخـيا» الخاصّ بـه، أو القائمقام، الثانى هو «الخازندار»، أو حافظ الخزينة، ٣) يحتفظ برفقته بخمسين، أو ستّين جنديًا على حصان، وهـم جميعًا شبّان بين الرابعة والعشرين والثلاثين سنة، لهم زىّ خاصّ، يركبون أمامه عندما يخرج مِن بيته، وتُسمّى هذه الفرقة «الطائفة»، أىْ حاشيـة البـاى. ينالون منه الأجر، والعلف للحصـان، وثوبًا فى السنة، ٤) اثنان مِن «السـاطرباشـى»، [٨٩] وهما شابّان، وكعلامة يحملان حزامًا مِن الفضّة الخالصة، ٥) «السائس»، أىْ رئيس الخيّالة، ويهتمّ بالسروج واللُجُم الخاصّة بالباى، ويسير على قدميـه أمام سيِّـده، ٦) «القِبْطـار»، أىْ مـعلِّم الإصْطَبْل، وهو يركب أمـام البـاى، ويحمل فى يده حربة، ثمّ نافخو الأبواق، و"البيـساريّة"، وقارعو الطبول، ويحتفظ منهم بقدر ما يشاء.

تُحْمَل كذلك أمام الباى، عندما يخرج بصفة رسميّة، قناةٌ مرسومة فوقها كرة مِن الخشب مرسومـة كذلك، ومربـوط فيها ذيل حصـان يتدلّى إلى أسفل، وهذه هى العلامة الحقيـقيّة التى يُعْرَف بها الباى، ويتـميَّز عن باقـى الطبقة الحاكمة، عندما يكون هناك احتفال ما، ولكن عندما يخرج بصفة شخصيّة، ومتنكِّرًا، لا يرفع العلامة المذكورة.

[٩٠] الفصل السابع

فى موارد مصر ونفقاتها، وفى الصرّافباشى، ووظيفته، وسلطته فى الأُجور، والنقود المستخدمة فى مصر، وقيمتها

يختلف إيراد البلد، كما أخبرنى عدّة شخصيّات، فهناك مَن قال لى مليونا قطعة مِن الثمانية [ريالات]، ومَن أكثر. قال لى صديق فى القاهرة، مطّلع على بلاط الباشا، إنّ النفقات كبيرة جداً، كما سنقول لاحقًا، ومنها يمكننا بسهولة تخمين الموارد.

١) يُرْسَل للسيِّد الأعظم كلّ عام ستّمائة ألف قطعة مِن الثمانية [ريالات]، وثلثان آخران مِن هذا المبلغ على هيئة قمح، وأرزّ، وسكّر، و[مواد لصنع] المشروبات، وقهوة، [٩١] وبازلاء، وعدس، وحبوب مشابهة، فيصل ما يأخذه [السيِّد الأعظم] مِن مصر مليون قطعة مِن الثمانية [ريالات]. ٢) على الجنود تُنْفَق، سنويًا، ٧٦٦٦٦٦ قطعة مِن الثمانية [ريالات]. ٣) تُرْسَل سنويًا إلى مكّة ١٦٠٠٠٠ قطعة مِن الثمانية [ريالات]. ٤) يحتاج الباشا وبلاطه إلى ١١٤٩٧٩٢ قطعة مِن الثمانية [ريالات] فى السنة.

تُحَصَّل هذه المبالغ مِن "الخراج"، أىْ الضرائب التى تُجْبى مِن كلّ مَن ليس صاحب امتياز، وهى ٤ أبوكَلْب فى السنة على الرأس، أىْ ٢٨ "جول". يُسْتَثنى مِن هذه [الضريبة] الجنود، والفرنج، والرهبان الأقباط، بما فيهم أيضًا البطريرك. كما تُحَصَّل المبالغ المذكورة أيضًا مِن القوافل، التى تدخل مصر، وتخرج منها. وقد أخبرنى القنصل الإنجليزىّ، السيِّد ريتشرد بِنْديش، أنّه فى زمانه وصلت قافلة مِن بلد [٩٢] السودان، دفعت للباشا عشرة آلاف أبوكَلْب، قسم منها نقود، وقسم عبيد .

ثمّ تُحَصَّل مِن المكوس فى مصر فى الإسكندريّة ورشيد (ويضمن الجمركون رئيس جمارك واحد)، ويدفعان ستّ مائة قطعة مِن الثمانية [ريالات] فى اليوم. [وتُحَصَّل] مِن ضمان أوراق السنا، والقرفة، وضامنهما الصرّافباشى، وهو يهودىّ، وكان يدفع للسيِّد الأعظم خمسة عشر كيسًا مِن النقود فى السنة، وتُجْمَع المبالغ المذكورة مِن «بيت المال»، أىْ مِن تركات المتوفّين، التى تؤول إلى المجلس، ومِن كنائس الأقباط، ومِن الحقول، والأملاك، وغير ذلك.

الخازن الأكبر، ويُسمّى بالعربيّة «الصرّافباشى»، يكون دائمًا مِن اليهود؛ لأنّ الأتراك يعوزهم الذكاء الكافى للقيام بوظيفة تحتاج إلى مجهود وحذاقة، ويلزم أنْ تُسلَّم له، بلا [٩٣] أيّة أخطاء، سائر حاصلات البلد، ووظيفته دفع الأجر فى الوقت المحدَّد لكلّ مَن يتبع المجلس.

وهو يشترى هذا المنصب، وفقًا لما سمعت، بثمن يتراوح بين عشرين وثلاثين كيسًا مِن الدنانير، وأحيانًا أكثر مِن ذلك، ويدرّ عليه، كما يُقال، عشرين كيسًا فى السنة، وأكثر.

لهذا الخازن، بالإضافة إلى ذلك، السلطة العليا على اليهود فى مصر (نجد منهم فى القاهرة وحدها نحو خمسة وعشرين ألفًا). يقوم بنفيهم، ويلقيهم فى السجن، ويصادر أملاكهم، ويفرض عليهم الغرامات، يمارس عليهم سلطة حتّى أنّهم يهابونه أكثر مِن الباشا ذاته، ولا يجرؤ أحدٌ منهم على معارضته، مهما كان عظيمًا أو غنيًا.

أجر البلاط، أىْ ما يذهب إلى الباشا، وأُسرته، يُدْفَع كلّ شهر، [٩٤] ويُسمّى الأجر الصغير، ويبلغ مائة وخمسة عشر كيسًا. ثمّ الكبير، الذى يُعْطى للجنود كلّ ثلاثة أشهر، ويرتفع إلى مائتين وثلاثين كيسًا.

يسع الكيس خمسة وعشرين ألف "مدين"، يوازى ثلاثون منها أبوكلب واحدًا، وهو يوازى بدوره تالّر هولنديًا برسم الأسد، ومنه ثمانمائة ثلاثة وثلاثين وثلثًا توازى كيسًا، وهو ما يقابل نحو ٦١٨ سكودًا رومانيًا.

النقود الجارية فى مصر هى "الفولّر" و"المدين"، الأوّل مِن النُحاس، والثانى مِن الفضّة، وعليهما مِن فوق اسم السيِّد الأعظم، واسم المدينة، وسَنة سكّها.

توازى ثمان "فولّر" "مديناً" واحداً، ويوازى سبع وثلاثون وِحْدة منه قطعة مِن وَزن الثمانية [ريالات]، ويوازى خمسة وسبعون مديناً سِكّيناً حديث السكّ [ذهب بندقيّ].

النقود الأكثر اعتباراً فى مصر، [٩٥] والتى يمكن المضاربة فيها إلى ثلاثين فى المائة، هى وَزْن قِطَع الثمانية [ريالات] الإسبانيّة. يمكن كذلك صرف [العملات] المجريّة وعملات أُخرى، ولكن لابدّ مِن الخبرة للكسب.

الفصل الثامن

فى كيفيّة الوصول إلى منصب ما والحصول على أجر ما ونتحدّث أيضًا عن كيفيّة إقامة الباشا، وإقالته عن الحُكْم

فى القاهرة، وبالتالى فى مصر كلّها، يمكن الوصول إلى أىّ شىء بالمال، بشرط فَرْك [فتح] اليد، والقيام بذلك فى الوقت المناسب. ومِن ثمّ ليس هناك منصب، مهما كان رفيعًا، أو شخص، مهما كان وضيعًا، أو قضيّة، مهما كان ميئوسًا منها، أو ديانة أو مذهب، مهما كان مكروهًا، إلاّ وينال مبتغاه منه مَن يدفع أكثر. لا أذكر أبدًا [٩٦] أنّى شاهدت قبولاً كبيرًا للرشوة فى أىّ مكان فى العالم مررت به، لدرجة أنّى أجرؤ على التأكيد أنّه يمكن بالنقود شراء روح الباشا ذاته. ولكن كثيرًا ما نشاهد شخصًا ما فى منصب اليوم، وفى الغد يُطْرَد منه مِن قِبَل آخر، وبالتالى إنْ أراد البقاء فيه يُجْبَر على المزيد مِن الدفع؛ لهذا السبب إذَنْ لا تُسْنَد المناصب لشخص ما بسبب كفاءته. الباشا نفسه لم يُقِمْ إلاّ بعد تقديمه خمسمائة كيس مِن النقود للسيِّد الأعظم. الجنود هنا لا يُسْتَخْدمون بأجر، كما فى بلادنا، بل مَن يريد أنْ يكون جنديًا، يتعيّن عليه أنْ يشترى له أجرًا؛ كلّما أراد شخص ما إنفاق أقچات أكثر، فى اليوم، تعيَّن عليه شراء أكثر منها، ولكلّ ثلاثين، أو على الأقلّ خمسة وعشرين أبوكلب تُدْفَع للمجلس، يقوم [المجلس] بعد ذلك فى الوقت المحدَّد بمكافأة [٩٧] مَن قدّمها، ولمدى الحياة، أقچة واحدة كلّ يوم، ويمكن أيضًا إعادة بيع هذا الدخل للمجلس نفسه، كلّما أراد شخص ذلك، بالسعر نفسه الذى اشتراه به.

لذا يمكن القول: ١) عندما يصير مسيحى تركيًا [مسلمًا] يزوِّده وليُّه، كلّ يوم ببعض الآقچات، لمعيشته؛ وإنْ لم يكفه هذا، فعليه أنْ يدبّر شؤونه بنفسه لكى يحصل على المزيد. ٢) عندما يُرْسَل الجنود بعد تجنيدهم إلى مهمّة ما، مثلاً إلى القسطنطينيّة، أو إلى مكّة، يُزاد لهم الأجر، لبضع آقچات فى اليوم، وكذلك عندما يعودون. وهناك على الأخصّ عادة جميلة جداً، وهى أنّه عندما يُرْسلون فى مهمّة ما، يُدْفَع لهم مقدّمًا أجر ثلاثة أشهر، وبالتالى يمكنهم فى الوقت المناسب [٩٨] التزوُّد بكلّ الأشياء الضروريّة؛ ولذا لا عجب إنْ كانت جيوش التركىّ هكذا مزدهرة. ٣) تتمتّع أيضًا أرامل وأيتام الأشخاص أصحاب الفضل وأيتامهم ببعض الأجر، سواء فى حياة الشخص، أو بعد موته، وذلك المبلغ لم يكن من قَبْل محدّدًا، غير أنّ إبراهيم باشا خفّض الأجر للأرامل على الأخصّ، إلى سبع آقچات فى اليوم، بينما كانت هناك فى السابق مَن تحصل على أربعين.

يتوقّف حُكْم الباشا بالطريقة التالية: بعد ثلاث سنوات من حكْمه، يُنْفذ السيِّد الأعظم «أولاقًا»، أىْ رجل بريد ومعه كتاب إلى القاهرة. وما إنْ يصل هذا، حتّى يخبر البلاط بالأمر، وفى اليوم الثالث يسلِّم الأمر إلى الباشا فى الديوان الكبير. فيقبّله الباشا، ويقرِّبه من جبهته، علامةً على التقدير الكبير، الذى يظهره. بعد ذلك [٩٩] يُنْزَع عنه رداء القطيفة، وتفْرَش مكانه فى الديوان، وتكون هذه علامة ظاهرة على نهاية حُكْمه.

حينئذٍ يُعْطى مهلة ثلاثة أيّام لتقديم حساب عن حُكْمه للديوان؛ ولهذا السبب يُوضَع تحت حراسة اثنين من البايات. فى هذه المدّة، إنْ كان مكروهًا لدى الشعب فى حُكْمه، وعندما يشاهده [الشعب] مسلوبًا من كلّ سلطة، ومحرومًا من كلّ أمر ونهى، يصرخ طالبًا الانتقام منه؛ ولذا كثيرًا ما يُلْقى فى السجن، ويُعامَل بطريقة سيّئة، كما حدث لإبراهيم المذكور، فى ذلك الوقت بالذات وأنا فى القاهرة، وقد ظلّ محبوسًا عدّة أشهر، إلى أنْ أُفْرِج عنه بأمر السيِّد الأعظم.

وقد قيل إنّه ظلّ مديناً للسيِّد الأعظم بألف وثلثمائة كيساً مِن النقود، فضلاً عن [١٠٠] اتّهامه باختلاس سبعين ألف «أردبّ» مِن القمح (وَزْن ثلاثمائة رطل) مِن مصر، ممّا تسبَّب فى حدوث مجاعة كبيرة. كما أنّه قام كذلك بقتل كثير مِن البايات، لا لسبب إلاّ للاستحواز على أملاكهم، ولذا بيعت فى المزاد، فى الساحة العامّة، المدعوّة «سپاهى بازار»، كلّ مجوهراته، وخيوله، وعبيده، وملابسه، وأشياء أُخرى ثمينة، وعومل هو نفسه كإنسان وضيع.

الفصل التاسع

فى البضائع التى تُستَورد من مصر، وتُوَرَّد منها. فى المكس، والفوائد، والأسواق، وأشياء أخرى، وكذلك أيضًا فى الحالة الحاضرة للإبحار نحو الإسكندريّة

البضائع الأكثر اعتباراً، المورَّدَة من مصر هي: [١٠١] الكتّان، ومختلف الأقمشة القطنيّة، وجلود الجاموس المدبوغة، والرماد المصنوع من عشب يُسمّى بالعربيّة «كَحْلَة»، ونجده حول الإسكندريّة، ويُصَدَّر إلى البندقيّة لصنع أكواب الكريستال، والنطرون، والسكّر، والصمغ، والدارصيني، والزعفران، والأفيون، والتمرهندى، والقرفة، وأوراق السنا، والبخور، والمجوهرات، وأشياء أُخرى، وأرى أنّه لو كان مسموحًا بتصدير القمح، وبذر الكتّان، وملح البارود، والملح، والأرز، لخلت أوروبا من المال.

من البندقيّة تُستَورد على الأخصّ الأردية الجيّدة جداً، والملابس الحريريّة، والمزركشة، وكمّيّات كبيرة من "الكُنْتاريا"، أىْ اللآلئ الزائفة، وورق الكتابة، وبضائع أُخرى مختلفة، كالسكاكين، والمرايات، والمقصّات، والأمشاط، والدبابيس، والإبَر، والشعر المستعار، والأحواض، والأطباق، وعندما تصل السفن إلى [سواحل] كُرانتى [اليونان]، تحمّل النبيذ، وتبيعه فى [١٠٢] الإسكندريّة. من ليڤُرْنو تُستَورد كذلك الأردية والملابس، ومن جِنْوا القيشانى، وعلى الأخصّ قِطَع الثمانية [ريالات] الجيدة، لشراء بضائع أُخرى مختلفة من هناك.

تُرْسل مِسّينا كل عام اثنتى عشرة سفينة محمَّلة بنبيذ سيرَكوزا، والقطيفة، وملابس حريريّة أُخرى، بقِطَع من الثمانية [ريالات].

مِن تونس فى بلاد البربر [شمال أفريقيا] يُستَورد الزيت، والكبريت فى برانٍ كبيرة جداً، وقِطَع الصابون الصغيرة، والقلانس الحمراء المشغولة بالإبْرة، بكمّيات كبيرة.

مِن قُبْرُص يُستَورد نبيذ، طيِّب جدًّا، وجبن، وأنواع مختلفة مِن "السلامي"، وعلى الأخصّ المعروف بالأربعينيّ، وأحياناً يصدف أنْ يأتى نبيذ مِن رودُس أيضًا، عندما تتوقّف "الشيقات" [السفن الصغيرة] الآتية مِن القسطنطينيّة فى ميناء رودُس، وتتحمّل به.

تزوّدها القسطنطينيّة بالخشب، وبمختلف مشغولات الخشب، كالصناديق، والطاسات، والملاعق، [١٠٣] وأوانٍ مختلفة مِن البرونز والنحاس، أىْ أطباق، وصحائف، وأباريق للقهوة، وطشوط، وفوق ذلك عبيد بيض، وسجّاد جميل، وفرو مسكوفى، وتبغ، وغلايين، ولحم مجفّف على الدخان.

مع هولندا وإنجلترا ليست هناك معاملات تجاريّة بالمرّة، إلاّ عن طريق البندقيّة وليڤُرنو.

تُرْسِل إليها مَرْسيليا الجوز والفستق وأبوفروة، والملابس، وورق الكتابة، واللوز، ونقود عداًّ لشراء بضائعهم.

إلى السويس، وهى مدينة وميناء على البحر الأحمر فى مصر، ترد بضائع ثمينة جداً مِن الهند، يشتريها الحجّاج العائدون مِن مكّة، وتُرسَل إلى القاهرة عن طريق البحر المذكور، إلى ميناء السويس، وهي: بذر القهوة، "پرْواجيه" الهند (أيْ الأردية المخطّطة بألوان مختلفة)، وأنواع أُخرى مِن القطن، والبخور، والأوانى الصينيّة، والبهارات.

[١٠٤] مِن كيوس، وهى جزيرة فى الأرخبيل، تُحْمَل كمّيّة مِن القماش المبطّن بالقطيفة والأطلّس.

مِن دمشق تأتى أفضل [أنواع] "الكُحْل" (وهو تراب أسود يقوّى النظر)، وتأتى كذلك الأغنام، والحديد الجيّد.

"قافلة" [دار] فور تحمل ريش النعام، وتمر هنديّ، وصمغ، وعبيد سود.

"قافلة" دُنْقُلة، وسِنّار تأتى كذلك بالعبيد السود، والصمغ، وقطّ الزباد، والتمر هنديّ، والتبغ، والقرود، والببّغاوات.

مِن "الواحة" [الواحة الخارجيّة، أو الخارجة]، وهى أرض فى مصر العليا، يأتى "الزبيب"، والبلح المجفّف الطيّب، والنبيذ البلديّ.

مِن الفيوم، وهى كذلك أرض فى مصر العليا، تأتى المفارش الدقيقة الصنع، المسمّاة بالعربيّة «حصير»، تُفْرَش بها الحجرات فى القاهرة.

البضائع الجيّدة، التى تُحْمَل إلى سواكن، ومُقّة، [١٠٥] دُنْقُلة، وسِنّار، والحبشة، هي: قلائد اللآلئ ، ومرجان البندقيّة الزائف، الذى يسمّيه عامّةً أهل البندقيّة "كُنْتاريا"، والكُحْل، وورق الكتابة، والسكاكين، والمقصّات، وكلّ أنواع زينة النساء، وكذلك السجاجيد، وقماش مصر الأبيض والأزرق، والمساند الجلديّة المزينّة برسومات الأزهار فى جِرْجا.

البضائع التى ترد إلى السويس مِن الهند عن طريق البحر الأحمر، تُدْفَع لها عشرة فى المائة مكوسًا، أمّا التى ترد عن طريق البحر المتوسِّط مِن بلاد المسيحيين، فيُدْفَع لها عشرون فى المائة، لكن التى ترد مِن بلاد التركيّ، فعشرة فى المائة. السفن التركيّة التى تُبْحِر مِن الإسكندريّة، تدفع خمسة فى المائة، لكن سفن المسيحيين عشرة.

بخصوص دَفْع الفوائد فى مصر، أنا على يقين بأنّه ليس هناك بلد أسوأ منه، [١٠٦] ومع أنّ القرآن يُحَرِّم الربا على التركيّ [المسلم] تحريمًا شديدًا، فإنّهم لا يقرضون أيّ شيء بدونها، وهم لهذا الهدف يلجأون إلى هذه الحيلة، مثلاً إذا احتاج

أحدٌ إلى أربعين قطعة من الثمانية [ريالات]، يطلبها من تركيٍّ، فيقدّمها هذا له، لكن يصطحب معه إمّا قطعة قماش أو ذراعَين من الأطلس، وأحيانًا مجرّد منديل، ويقول له: «هاك الأربعين قطعة من الثمانية [ريالات]، ولكن إذا وافقت على أخْذ هذه البضاعة بستّين في ستّة أشهر، فأنا في خدمتك». وبالتالي مَن يجد نفسه في العوز، يكون مجبرًا على القبول. وفي الحال يكتبون إيصالاً في حضور الشهود، تكون صيغته: يقرّ فلان الفلانيّ أنّه تلقّى مائة قطعة من الثمانية [ريالات]، ما بين بضائع ونقود، ويتعهّد بإعادتها في مدّة ستّة أشهر، وبعد انقضائها، يعود [١٠٧] الدائن، أو يرسل وكيلاً عنه لاستلام النقود. إنْ استطاع المديون الدفع، حسن، وإنْ لم يستطع، وطلب من الدائن مهلة ستّة أشهر أُخرى (وهو شيء يفعله الأتراك بسرور)، يضاعفون حينئذٍ الإيصال بالنسبة إلى السابق.

بسبب هذا الربا غرق القناصل الفرنج في القاهرة في الديون، ولن يتمكّنوا أبدًا من التخلُّص منها. كان القنصل الفرنسيّ، المسْيه برْمون (الذي مات الآن) مدينًا بـ ٢٠٠٠٠٠ قطعة من الثمانية [ريالات]، والبندقيّ، الذي هرب من مصر، بـ ٥٠٠٠٠ قطعة، والهولندي بـ ٣٧٠٠٠، وقد حكى لي الإنجليزيّ أنّه كان مجبرًا أنْ يدفع لقرّانه مائة وخمسين في المائة كربا في ستّة شهور، للخبز الذي كان يأكله، لكي لا يموت من الجوع.

[١٠٨] بخصوص الأسواق في القاهرة، ثمّة ساحتان مخصّصتان من قِبَل السيِّد الأعظم لإقامة السوق، تُسمّى الأُولى «سپاهي بازار»، والثانية «خان الخليلي»، وتُقام [السوق] في هذه الإثنين والخميس، وفي تلك باقي الأيّام. هاتان هما الساحتان، حيث تُباع كلّ الأشياء ذات الثمن المرتفع، ويُسْمَح لكلّ أحد، أيًا كان، أنْ يشترى ويبيع بحريّة، حتّى المسيحيّ، واليهوديّ يمكنهما منافسة التركيّ في تقديم العرض الأفضل، هناك فضلاً عن ذلك أسواق أُخرى لا داعي للحديث عنها.

بخصوص الحالة الحاضرة للملاحة نحو مصر، لا يمكن أنْ ننكر أنّ الحركة غير قليلة، وكثيرًا ما يهاجم أهل مالطا وأهل البندقيّة [السفن]، ويحصلون على الأسلاب.

وملتزم الجمرك بدوره يسيء معاملة [١٠٩] السفن الأجنبيّة، وينتزعون منهم أحيانًا النقود بالقوّة، تحت شكل قَرْض، مقدّمين لهم إغراءات كبيرة، ويفعل القناصل هم أيضًا بالمثل. ولهذا السبب كان للقنصل الفرنسيّ المذكور أحيانًا في الوقت نفسه سبع وعشرون سفينة في ميناء الإسكندريّة سنة ١٦٦٥، عندما كنت أنا هناك، ولم يكن له مثل هذا العدد طوال العام. قناصل آخرون كانوا لا يكادون يرون سفينتين في العام؛ حينئذٍ في رشيد والإسكندريّة يتشكّى أصحاب المظالم كثيرًا، وإذا استمرّ هذا الحال لبضع سنوات فقط، سيصيب الضرر هذا البلد، سيتضرّر أيضًا كثيرًا ملتزم الجمرك، الضامن؛ لأنّه سيدفع، في تلك السنة، خمسين كيسًا مِن النقود مِن جيبه.

[١١٠] الفصل العاشر

فى قناصل الفرنج ، ونناقش حالتهم بإسهاب

يجب أولاً أنْ تعلم أنّ الشرقيين يطلقون [اسم] فرنج على سائر الأوروبيين، بدون تمييز للغة، أو العقيدة الدينيّة، وهم غير خاضعين لسلطة التركيّ؛ ولهذا السبب، أعتقد أنا [أنّهم يُسمّون كذلك] لأنّهم أحرار [فَرَنْكى] مِن [طاعة] أمر هذا التركيّ.

القناصل الفرنج فى الوقت الحاضر أربعة فى مصر بأسرها، أىْ الفرنسيّ، والإنجليزيّ، والبندقيّ، والهولنديّ، يسكنون فى القاهرة، ولهم نواب قناصل فى الإسكندريّة، ورشيد.

يعيشون مِن دخل القنصليّات، الذى يقوم على أنواع مِن الضريبة، تُجْبَر كل سفينة تصل إلى الإسكندريّة [١١١] على دَفْعها لقنصل أُمّتها وتُسلّم له، وكذلك البضائع التى تحملها، على كلّ مائة مِن قيمتها، تدفع له أربع قِطَع مِن الثمانية [ريالات] ونصف. أهل مِسّينا فقط يدفعون اثنى عشر فى المائة، بسبب بعض الديون الباهظة التى تركها فى السابق أحد قناصلهم.

يناط بالقناصل المذكورين حماية السفن، والأشخاص، والأشياء مِن أىّ نوع مِن الإهانة، أو الضرر، يمكن أنْ يصدرا عن ملتزم الجمرك، أو عن الأتراك. باقى الأُمَم التى ليست لها قنصل معيّن فى مصر، يُدْعون أجانب، وينضوون تحت حماية القنصل الفرنسيّ، وهو «سلطان» اقتناه بالمال مِن عدّة بشوات، رغم أنّ الإنجليزى يدّعى لنفسه هو أيضًا هذه السيادة، وقد سبّب هذا النزاع فى التنافس [١١٢] لكلا الاثنين نفقات باهظة، وأدّى إلى تدمير أحدهما للآخر.

منذ نحو أربعين سنة كان في مصر قنصل واحد بندقي الجنسيّة، اسمه سَنْتو سَجِتْسي. هذا [القنصل]، لثراه المفرط، ولعدم معرفته ماذا يعمل بالمال، استنّ عادة جديدة، ولكن سيئة جداً، وهو أنْ يقدّم للباشا كلّ سنة في شهر "بيرام" [رمضان] (وفيه يحتفل الأتراك [المسلمون] بفصحهم [بفطرهم]) كثيراً من قماش الأطْلس الأحمر في قطع تكفي لتفصيل ثمانية عشر ثوبًا، باعتبار الثوب اثنتي عشرة ذراعًا، وكان كذلك يقدّم ثوبًا لآغوات الانكشاريّة، والصوباشي، والدفتردار، والكخيا، و"ترجمان" الباشا، كلمّا جرى تبديلهم، ولكلّ باشا جديد يصل، [كان يقدّم] ثمانية وعشرين ثوبًا من الخامة المذكورة، وبهذه العادة حفر حفرة للقناصل الحاضرين، [١١٣] حيث إنّ الأتراك يحافظون عليها إلى يومنا هذا، رغم أنّه كان هناك وقتئذ قنصل واحد لسائر الأُمَم المذكورة، واليوم هناك أربعة بدلاً من واحد، والتجارة أقلّ إلى النصف ممّا كانت عليه في السابق.

فضلاً عن ذلك حاز هو على تقدير كبير لدى الأتراك، وحصل من الباشوات على امتياز يسمح له هو، وكلّ خلفائه أنْ يأتوا في الكرامة بعد الباي مباشرةً، ولذا يُسمّى القناصل إلى أيّامنا هذه من قِبَل الأتراك أنفسهم في لغتهم بلفظ يعني نصف باي، ويحملون الشارات الخاصّة به، أيْ سُرُج للحصان مزوّدة بشفرات من الفضّة، وسلسلة من الفضّة كذلك حول رأس الحصان (وهذه الأشياء حسب العادة التركيّة مغطّاة كلّها بشرائح الفضّة). [١١٤] وهم فقط يمتطون الخيل، وهو أمر غير مسموح به لأيّ مسيحيّ آخر أو يهودي في القاهرة. يجلسون بقرب الباشا عندما يقابلونه، ولهم محكمتهم الخاصّة. ولكن في الوقت الحاضر، بعد تردّي حالهم، لضعف التجارة وبسبب التنافس غير المُجْدي على حماية الأمم الأجنبيّة، وغرقهم في الديون، غدت هذه الفخفخة الخارجيّة بالنسبة إليهم عبئًا أكثر منه عونًا؛ فمع كلّ هذا، ماذا يقدّم لهم لقب «صاحب العظمة» هذا، وهم يكافحون للبقاء على قيد الحياة!.

إنّ هؤلاء، بعد أنْ يرشّحهم رؤساؤهم لهذا المنصب، يحتاجون إلى التثبيت من قِبَل السيِّد الأعظم، ثمّ يولّيهم من جديد كلّ باشا يأتي، وبدون هذه التولية لا يتسنّى لهم ممارسة أيّة سلطة.

تجرى تولية قنصل ما على هذا النحو، الذى [١١٥] شهدته عندما تمّت تولية يوهَنّ تيلْس، القنصل الهولندىّ على يد عمر باشا.

بعد وصول الباشا مِن القسطنطينيّة إلى القاهرة، يجب على القناصل فى خلال شهر مِن وصوله، التوجّه لتهنئته، وتقديم الهدية المعهودة، الثمانية عشر ثوبًا مِن الأطلَس. خلف هؤلاء، عندما يتوجّهون إلى الباشا المذكور، ممتطين الخيل، يأتى سائر أهل بلاطهم. يركب أمامهم، فى العادة، اثنان مِن الانكشاريّة، الواحد مِن بيتهم، والآخر مِن الحىّ، كلّ واحد بعصاه المرسومة فى يده، يأتى بعدهم المترجمون، ثمّ تجّار أمّتهم، والحاجب، مع باقى الحاشية، وفى الآخر القنصل.

لدى وصوله إلى القلعة، مقرّ الباشا، ينتظر الباشا مع حاشيته، فى الإيوان، [١١٦] ويأتى هذا مِن مخدعه، يسنده مِن هنا ومِن هناك اثنان مِن الغلمان، ثمّ يجلس على بساط مفروش على الأرض، ولدى مروره، يتقدّم إليه القنصل، وينحنى بعمق، ويتصنّع تقبيل ثوبه، ثمّ يرفع القبّعة، ويجلس بجانبه على الأرض، على البساط نفسه، وتنتظر حاشيته قريبًا، يناط بالمترجمين شرح خطوات الاحتفال للواحد وللآخر.

فى هذه الأثناء يُحمَل إلى القنصل قدحٌ مِن القهوة، وبعد قليل كوب مِن الشراب المنعش. فى نهاية التهانى، يُحمَل ثوبان مُطَرَّزان، الواحد إلى القنصل، والثانى إلى "ترجمانه"، ويشبه الثوبان ملابس الفرسان، بدون أكمام، وبذيول. ويجب على الاثنين تقبيله، وارتداؤه فى حضور الباشا، [١١٧] بعد القيام بهذا، وفى نهاية الحفل كلّه، لأنّ كلّ شىء ينتهى بنحو عشرين كلمة، هنا يستأذن القنصل مِن الباشا فى الانصراف، وينزل بالثوب المذكور إلى الفناء، حيث ينزعه، عندما يستأذن القنصل فى الانصراف، كلّ راغب فى تقبيل ثياب الباشا يُسْمَح له بذلك. فى أثناء ذلك، فى الفناء، ينتظر أتباعُ الباشا القنصلَ للحصول على هبتهم، التى يجرى توزيعها، ولكلّ واحد حصّته. يأتى فى اليوم التالى نافخو الأبواق، وقارعو الطبول، وعازفون آخرون للباشا إلى بيت القنصل، ويعزفون له، ولهذا العمل هبة أُخرى. يذهب بعد هؤلاء مهرّجو الباشا للهدف نفسه، ثمّ عازفو الديوان، إلى أنْ ينال الجميع هبتهم، والقنصل الذى

لا يقدر على مثل هذه النفقات، لا يجرؤ حتّى على طلب التولية، ولا ينعم [١١٨] بدخل القنصليّات، كما جرى للإنجليزيّ المذكور عندما كنت هناك، وحتّى لو وصلت سفن من أمّته، يذهب الدخل تحت مسمّى الأجانب للقنصل الفرنسيّ.

الفصل الحادى عشر

عرض بعض المعلومات عن أهل دُنْقُلة، الإقليم المتاخم لمصر، نحو الجنوب وبهذه المناسبة نذكر أيضًا كيفيّة الذهاب إلى الحبشة

دُنْقُلة هى البلد المتاخم لمصر نحو الجنوب، تُسمّى المدينة التى تقسم هذين الإقليمين إبْريم، وفيها مقرّ آخر حاكم لمصر.

رغم أنّ أهل هذا البلد ليسوا قطْ سوداً كالحبشة، غير أنّهم سُمْر كثيراً. يأتون فى وقت محدَّد [١١٩] مِن السنة فى جماعات إلى القاهرة، للقيام بالخدمة، ويسعون كثيراً على الأخصّ لخدمة بعض الفرنج، وكأجر يكتفون بمدينين اثنين فى اليوم.

يأتون فى العادة سيراً على الأقدام، حُفاة وشبه عُراة؛ لأنّهم لا يرتدون إلاّ قميصاً أزرق، لا يكاد يصل إلى الركبَتين، كأسلحة دفاعيّة يحملون نصف حربة، وكمؤونة قليلاً مِن الخبز، والتبغ.

بالإضافة إلى القرود (التى نجدها فى بلادهم بأعداد كبيرة)، والببّغاوات، يحملون معهم فى العادة "قيثارة" [ربابة]، جسمها مِن الخشب، مصنوع على شكل طاسة، مغطّى بجلد بعض الحيوانات، وبداخلها على جانب عصوان مغروسان بالطول، وعصا أُخرى فى أعلى مثبّتة بطريقة عكسيّة، هذه [١٢٠] الآلة مزوّدة بخمسة أوتار، عندما يلمسونها وهم يلهون، يقفزون، ويرقصون للنغمة النشاز لهذه الآلة، بمنتهى الفرح الموجود فى العالم، وفى أثناء الرقص يصفقون، ويضربون الأرض على التوالى بالرجلَين.

إنّهم أذكياء جداً، على مستوى أيّة أُمّة نفسه فى أوروبا، جزلون، ومستعدّون للخدمة. إنّهم أيضًا مؤتمنون جدًّا، وفى وفاق مع بعضهم البعض، كإخوة كثيرين. بعد خدمتهم لبعض الوقت الذى لا يتعدّى السنتين، يستخدمون الأجر الذى جمعوه (ويصل إلى ٣٠ قطعة مِن الثمانية [ريالات]) فى [شراء] كثير مِن القماش الأزرق [البفتة]، والشاش الأبيض للعِمَم، وشفرات السيوف القديمة، التى يهتمّون بها كثيرًا، ويحملون كلّ شىء إلى بلدهم، وهم فى غاية السعادة.

[١٢١] تختلف اللغة الدارجة للناس المذكورين كثيرًا عن العربيّة، والحبشيّة، والتركيّة، غير أنّ معظمهم يتحدّثون بالواحدة، أو بالأخرى، باستثناء الحبشيّة، فلم أجد أحدًا منهم أبدًا يعرف التحدُّث بها، ولم أُقابل أيضًا أحدًا يعرف كتابة لغته الخاصّة، رغم البحث الدءوب الذى قمت به، والهبات التى قدّمتها عدّة مرّات لكلّ مَن يأتى إلىّ بواحد يعرف كتابتها. إلاّ أنّهم يتعلّمون إدارة البيوت واللغة الإيطاليّة فى شهور قليلة جدًّا لدى وجودهم فى القاهرة. بالنسبة إلى ديانتهم يتبعون اليوم عقيدة النبىّ محمّد، ولكنّهم مِن أصول مسيحيّة، وقد فقدوا الإيمان المسيحىّ بسبب نقص الثقافة.

تُسمّى العاصمة « دُنْقُلة »، ومنها يأتى أيضًا اسم [١٢٢] البلد بأسره، ونجد غير بعيد منها، كبُعْد بولاق عن القاهرة، أىْ ثلاثة أميال، [مدينة] دنقوسىّ، وهى مدينة يذكرونها كثيرًا. قيل لى إنّ نائب ملك هذا الإقليم يُدْعى « حسين »، ويتبع سلطان سنّار.

يرسل هؤلاء الدناقلةُ شعرَهم طويلاً، ويجدلونه فى عدّة ضفائر، تنزل خلف الرأس، ويجمعونها معًا بالدبابيس، بعد تمشيط الشعر، ودهنه أوّلاً بالزبدة الفاسدة، وتجفيفه تحت الشمس، وذلك لتجنُّب القذارة، وهكذا يشبه الشعر المجدول بهذه الطريقة شبكة، مِن عادة النساء حملها على الرأس، وتكون بالنسبة إليهم كعِمّة؛ لأنّهم لا يُغطّون أبدًا رأسهم بشىء آخر.

عندما يمرضون، يتعالجون بالطريقة التالية: يجرون للمريض عمليّة فَصْد، مقدار [١٢٣] دائرة سْكود، في قرمة الفخذ، بالموسى، في أكثر من مائة قَطْع صغير، لإخراج الدم الفاسد، وإنْ لم يخرج بغزارة، يضغطون عليه بقوّة. أو يخرجون الدم مِن الجبهة، وبهذه الطريقة يتعافون في أيّام قليلة، ويحتملون الألم بمنتهى الصبر الموجود في العالم. بخصوص العادات، هم كسائر باقي الأتراك، منغمسون في رذيلة الصادوميّة [اللواط] المقيتة.

الطريقة المؤدّيّة مِن القاهرة إلى بلدهم، ومنها إلى الحبشة، وفقًا لأضمن وأوثق تقرير حصلت عليه مِن قبطيّ، كان يتاجر في العبيد المجلوبين مِن هذا البلد، هي التالية :

يُبْحِر المرء مِن مصر القديمة، يوم الاثنين، أو الجمعة، إمّا باتّجاه «مَنْفَلوط» (وهي مدينة تبعد عن القاهرة سَفَر نحو ستّة أو سبعة أيّام)، وإمّا باتّجاه أسيوط، [١٢٤] وتبعد عنها يومًا ونصف يوم، وإمّا باتّجاه «جِرْجا»، وهي مدينة على النيل، تبعد عن «مَنْفَلوط»، نحو أعلى، ثلاثة أيّام (حيث إنّه مِن واحدة مِن هذه المدن الثلاث، تنطلق القافلة نحو «الواحة» [الواحة الخارجيّة، أو الخارجة]، التي تبعد عن «أسيوط» ثلاثة أيّام)، ثمّ يتوجّه المرء إلى «المَقْس»، وهما يومان آخران، ومِن هناك إلى «الشَبّ»، ثلاثة أيّام، ومِن هناك إلى «سَليم» [سليمة]، ثلاثة أُخرى، ومِن هناك إلى «موشو»، خمسة، ثمّ في خلال خمسة أُخرى يصل المرء إلى دُنْقُلة. وبالتاليّ، للقيام بهذا السَفَر مِن القاهرة، يحتاج المرء إلى نحو ثلاثين يومًا، يقوم به بعض الدناقلة في خمسة وعشرين، ولكن القافلة تحتاج إلى وقت أطول، لوقوفها في أكثر مِن مكان، للتزوُّد مِن جديد.

ثمّ لمتابعة السَفَر إلى الحبشة، يجب المرور ببلد سِنّار، ويسكنه أيضًا مسلمون، ويمرّ الطريق [١٢٥] على الأماكن التالية: مِن دُنْقُلة يسافر المرء لثلاثة أيّام إلى «كُشابي»، ومِن هناك إلى «كورتي» [قورته]، خمسة [أيّام] أُخرى، ثمّ ثلاثة أُخرى إلى «تْريره» [دريره]، وإلى «جِرّي»، في يوم واحد»، ثم إلى «الحلفايه»، فإلى «اربتج»

[أرْبَجى]، ثلاثة أُخرى، ومِن ثمّ أربعة إلى «سِنّار» (حيث مقرّ سيِّد هذا البلد)، ووفقا لتقرير أهل هذا البلد تحارب [هذا السيِّد]، لمدّة أربع سنوات، مع ملك الحبشة، الذى كان فى السابق سيِّده، وأخيرًا استقلّ عنه. مِن هنا يمكن الوصول إلى تخوم الحبشة فى مدّة خمسة عشر يومًا أُخرى. هذه هى الطريق البرّيّة المؤدّيّة إلى الحبشة مِن مصر.

غير أنّ هناك أيضًا طريقًا أُخرى أسهل للتوجّه إلى الحبشة، أىْ عن طريق البحر الأحمر، حيث جرت العادة فى الإبحار، إمّا مِن «السويس»، وإمّا مِن «القُصَير»، وهما ميناءان على البحر الأحمر إلى جدّة، مدينة تقع على البحر ذاته.

[١٢٦] للتوجّه إلى «السويس»، هناك فى القاهرة فرصة كلّ شهر، مع القافلة التى تسافر، وتحتاج [الرحلة] إلى ثلاثة أيّام، ومِن هناك يبحر المرء على بارجة إلى جدّة، تبحر هذه البارجة فى العادة نحو شهر يناير، وتعود فى خلال شهرين أو ثلاثة، وتتمّ هذه الرحلة فى خمسة وعشرين يومًا.

للتوجّه إلى «القُصَير»، يبحر المرء فى الأيّام المذكورة، مِن مصر القديمة إلى جِرْجا، ومِن هناك يتوجّه المرء، برًا، إلى «جِنّه» فى يومين، ومِن هناك فى أربعة أُخرى إلى «القُصَير»، حيث ينتظر الإبحار إلى جدّة. يُعْتَبَر هذا الميناء أكثر أمانًا وأكثر راحة مِن ميناء السويس، لكونه خاليًا مِن الصخور، أمّا ذاك فعلى العكس حافل بها.

مِن «جدّة» يبحر المرء إلى «مُصَوَّع»، وهى جزيزة فى البحر الأحمر نفسه، تبعد أيّامًا قليلة مِن هناك، ومِن ثمّ ينزل على اليابسة فى «أرْكيكو»، [١٢٧]، ميناء فى الحبشة، لكن فى يد الأتراك. مِن «أرْكيكو»، يدخل المرء فى بلد «سَمْهار»، وهو غير آهل بالسكّان، لكن به مراعٍ جميلة جدًا، ولهذا السبب، فى موسم الأمطار الغزيرة فى الحبشة، مِن عادة الأحباش إرسال قطعانهم هناك للرعي. بعد عبور هذا البلد، يدخل المرء فى دولة «سَراوه»، نائب ملكها (وهو صاحب مقاطعة خاضعة لإمبراطور الحبشة) يُدْعى نائب ملك «برناجسّو»، وهو [اسم] موقع إقليمه، الذى يمتدّ على طول

البحر الأحمر؛ لأنّ «بحر نجاشي» لا تعني إلاّ ملك البحر. بعد اجتياز مدينتي «دَبَروا» و«سَراوه» نفسها، حيث مقرّ نائب الملك المذكور، يعبر المرء نهر «مارب»، ويدخل حينئذ في إقليم «ميجواوا»، حيث كان للآباء اليسوعيين في السابق مقرّ جميل جداً، ولكنّهم طُرِدوا في أيّامنا هذه، لا [١٢٨] مِن هناك فحسب، بل ومِن الحبشة برمّتها. بعد ذلك يصل المرء إلى «أكسوم» الملكيّة، وعاصمة مملكة تيجريّ، التي كانت مقرّ ملكة سبأ. ثمّ يدخل المرء في «سيره»، وهي إمارة في تيجريّ، ومِن ثمّ بعد عبور نهر «تكّاسه»، يصل المرء إلى «وَلْدوبّا»، وهي كذلك إمارة في تيجريّ، ثمّ في «شَهاجْني»، وهي بالمثل إمارة في المملكة ذاتها، ومِن ثمّ في «لَماليمو»، وهي الخطوة التالية لدخول «أَمْهَرَه»، حيث يجري فحص المسافرين والتحقُّق منهم، وإجبارهم على دَفْع قدر مِن المال للسماح بدخول كلّ ما معهم [مِن الأمتعة والبضائع]. وبالتالي يصل المرء إلى «أوجره»، وهي إقليم في مملكة «أَمْهَرَه»، وفي آخر الأمر، يصل المرء إلى «جوندار»، وهي مدينة فيها اليوم مقرّ ملك الحبشة. هذه هي الرحلة مِن «أَرْكيكو»، حتّى «جُندار»، ويمكن القيام بها في نحو شهر ونصف.

[١٢٩] هذا هو في رأيي الوصف الأدقّ، والأوثق، الذي يمكن تقديمه لمن يروم التوجّه إلى الحبشة.

[١٢٠] تقرير الحالة الحاضرة لمصر

الجزء الثالث

فى حالة الأقباط الكنسيّة

الفصل الأول

فى اهتداء مصر إلى الإيمان المسيحى، وفى بطريرك الأقباط المسمّى [بطريرك] الإسكندريّة، والذى يُقَدّم عنه تقريرٌ شافٍ

أمّا بخصوص اهتداء مصر إلى إيمان يسوع المسيح المقدَّس، فهو شيء معلوم فى تواريخ الكنيسة، سواء [١٣١] تواريخنا، أو تواريخ اليونانيين، والأقباط، والأحباش. لقد كان القدِّيس مرقُس الإنجيليّ، تلميذ القدِّيس بطرُس الرسول، هو أوّل مَن بشّر بإنجيل المسيح فى الإسكندريّة (عاصمة مصر، وأشرف مدينة فى ذلك الوقت، والأكبر والأغنى بعد روما، أكثر مِن سائر مدن العالم) وبِنْتَپوليس [الخمس مدن]، وليبيا، والنوبة، كما أسَّس فى تلك المدينة، بأمر القدِّيس بطرُس، كرسيه الأسقفيّ، وبعد مرور تسع عشرة سنة مِن بشارته، أىْ فى سنة ٦٤ للمسيح، نال هناك سعفةَ الاستشهاد.

إنّ تاريخ بشارة هذا الإنجيليّ القدِّيس معلومة فى [كتاب] الكَرْدينال بَرُنْيوس، وكُتّاب كنسيين آخرين، ولا يسمح لى هدف تقرير مصر هذا (وهو أنْ أقتصر على الحالة الحاضرة للأمور) [١٣٢] أنْ أطيل الكلام، وأنْ أتحدَّث عن هذه الظروف الأكثر خصوصيّة، التى وجدتها حول هذا الموضوع فى كُتُب سِيَر الشهداء والقدّيسين العربيّة والحبشيّة. أقول فقط، رغم أنّ هذا الكرسى البطريركيّ كان له كمؤسِّس، إنجيليّ وتلميذ للقدّيس بطرُس، فإنّه حافظ، لمدّة أربعمائة وخمسين سنة على قداسته الأولى، وصفاء التعليم، وبعد ذلك أصبح سريعًا، بسبب ديُسكورُس [ديُسْقورُس] الضالّ الهرطوقيّ، كرسى هراطقة، وعدوًا لدودًا للكنيسة الرومانيّة. وثابر على هذا الانشقاق

ويثابر عليه إلى وقتنا الحاضر، جميعُ البطاركة، الذين خلفوا هذا الهرطوقيّ على هذا الكرسى نفسه.

إنَّ سلطة هذا البطريرك، كما كانت دائمًا، هى [١٣٣] إلى الآن واسعة جداً، وهذا يمكن معرفته مِن رسالة له زوّدنى بها لذلك الأمير الذى بسببه قمت بهذه الرحلة، [أمير] الحبشة، وبداية هذه الرسالة مترجمة عن العربيّة إلى الإيطاليّة، كما يلى هنا.

«متّاؤس الخادم غير المستحقّ ليسوع المسيح، والمدعو بنعمة الله، والمقام بإرادته لخدمته، على كرسى القدّيس مرقُس الإنجيليّ، فى مدينة الإسكندريّة، وأورشليم، ومصر العليا والسفلى، والنوبة، والحبشة، إلخ».

إنّ مقرّه اليوم ليس بَعْد فى الإسكندريّة، كما فى الماضى، بسبب قلّة الأقباط هناك، وسائر مساكنهم مدمّرة تقريبًا، ولكن فى القاهرة الكبرى، فى الشارع المدعو «حارة زويله»، بقرب كنيسته البطريركيّة، المدعوّة [كنيسة] العذراء، ولكنّه يحتفظ مع ذلك باللقب القديم. وهو يقيم أحيانًا [١٣٤] فى مصر القديمة، فى الشارع المدعو، بسبب سكنه «حارة البطرك»، أىْ شارع البطريرك، حيث لديه كذلك كنيسة كتدرائيّة، مدعوّة [كنيسة] الطوباوىّ مِركوريوس. ويسكن، حسب الفصول، أو المهمّات التى تتطلّب وجوده، أحيانًا فى دير القدّيس جرجس، الكائن فى حى آخر فى مصر القديمة، وأحيانًا فى «الجيزة»، وهى أرض فى مواجهة مصر القديمة عبر النيل.

ويجرى اختياره لهذه الكرامة مِن دير القدّيس أنطونيوس، أمّا ذلك البطريرك الذى كان آنذاك، عندما كنت هناك، أىْ سنة ١٦٦٤، فكان مِن دير القدّيس مكاريوس، وهو مِن الرهبنة نفسها.

شروطه: أنْ يعرف القراءة والكتابة، وأنْ يعى جيّدًا حالة كنيسته، وأنْ يكون متوطّدًا فى الديانة المسيحيّة، [١٣٥] خبيراً فى الكتاب المقدّس، وفى المجامع، والآباء القدّيسين. لا تُطلّب منه أيّة درجة رفيعة أخرى فى العلم، حيث إنّ جميع رجال الكنيسة

أولئك، سواء كانوا كهنة، أو رهبانًا، هم بسطاء جدًا، وفوق ذلك جهلة فى كلّ نوع مِن العلوم.

المفروض عليه هو أنْ يرتّل القدّاس أحيانًا، وأنْ يقوم بالرسامات، وأنْ يعمّد أحيانًا، ويعقد الزواجات، وأنْ يذهب لزيارة الكنائس، وأديرة مصر، وأنْ يحافظ على حالة حسن النظام فى كنيسته.

طريقة الحياة التى يعيشها فى بيته هى كما يلي: يجلس عادةً طول النهار فى بيته، فى حجرة الاستقبال، فى الصدارة، فى وسطها، يجلس القرفصاء، على جلد نعجة بصوفها، مبسوط على سجّادة، تغطّى نصف تلك الحجرة.

[١٣٦] عندما يذهب جميع المسيحيين لمقابلته، يخلعون الحذاء عند الدخول إلى تلك الحجرة، ويضعونه فى مكان قريب مِن الباب، وعندما يصلون إلى البطريرك، يركعون أمامه بكلتا الركبتين، ويأخذون يده، ويقبّلونها، ويقرّبونها مِن الجبهة. بعدما يضع هو يده على الرأس ويباركهم، ينسحبون بضع خطوات إلى الوراء، ويجلسون فى الصفّ مع الآخرين، ويجلسون هم كذلك القرفصاء، حوله مِن هنا وهناك، فى الحجرة على السجّادة، وإلى أنْ ينتهى الآخرون مِن أمورهم، يتناولون القهوة، وبعض المأكولات للإفطار، كالخبز المحمّص [البقسماط، أو القراقيش]، أو البلح المجفّف. وفى اللحظة التى يشير فيها إليهم البطريرك، يتقدّم الذى أُشير إليه، ويعرض ما يرغب ويقوم، عند الانصراف، بإمارات الاحترام نفسها.

[١٣٧] تتكوّن مائدته مِن أنواع قليلة مِن الطعام، كطبق سمك، أو عنب، أو جبنة بيضاء يدعوها العرب «جبن حَلوم»، وفجل، وبصل. شرابه ماء النيل، حيث إنّه لا يُسْتَعْمَل النبيذ فى بيته، يدور أحيانًا كأس مِن العرقي. يأكل كفاكهة البلح، أو التين. جلساؤه هم كاتبه، وهو كاهن، وكلّ مَن مِن الكهنة أو الرهبان، أو مَن يأتى لمقابلته، وأنا أيضًا تقابلت معه عدّة مرّات.

طريقة لباسه محترمة، ولكن غير فاخرة؛ قميصه مِن القماش الأبيض، وفوق هذا يرتدى ثوبًا مِن قماش سماويّ اللون، أو ثوبًا قصيرًا، يرتدى فوقه رداءً مِن قماش

أسود. وهو يغيّر ملابسه حسب الفصول. يحمل دائمًا عكّازًا بدلاً مِن العصا، كما يفعل كذلك جميع [١٣٨] الرهبان الآخرين، وهم عندما يتعبون مِن الصلاة، يستخدمونها كسَنَد؛ لأنّهم يصلّون دائمًا وهم وقوف. يحمل [البطريرك] فوق العمّة شريطًا طويلاً، لونه في الغالب رماديّ، ينزل على الجهتين، ويضمّ جانبيه. لا يرتدي أبدًا جوارب، وعندما يخرج يركب حمارًا، ويتبعه الكاتب وراهبان، كلّ واحد يحمل عكّازه في يده، وهم أيضًا يركبون الحمير.

يصل دخله، كما بلغني، إلى عشرين ألف أبوكلب في السنة، وهي عشرون ألف تالَّر هولندي برسم الأسد، ولكن يبدو لي هذا كثيرًا، لكنّه يمكن أنْ يكون صحيحًا؛ لأنّ أورشليم تأتي إليه بالكثير، حيث تملك أمّته كنيسةً صغيرة. ولكن التركي الجشع، الذي لا يحتمل رخاء غيره، يثقل على مَن ليس [١٣٩] مِن ديانته؛ كما حدث للبطريرك المسكين، قبل سفري مِن القاهرة بثمانية أيّام، عندما اختبأ في إصطبل في مصر القديمة، حيث إنّي واجهت صعوبة في العثور عليه، لكي أستأذن منه بالانصراف، وقد طالبه الباشا بستّة أكياس مِن المال، لا لسبب آخر، إلاّ لأنّه رسم كاهنين، الواحد منهما رغم أنفه، وكان قد ذهب إلى تركي صاحب نفوذ يعرفه، لكي يشكوه، وهو الذي أثار الباشا ضدّه.

يجب عليه أيضًا أنْ يهتمّ بالأمور الضروريّة لكنيسته حيث يقيم، وبالأكليرُس، وبالفقراء، فلا يبقى له إلاّ القليل.

أمّا مِن حيث عمره، فله أربع وستّون سنة. لونه زيتونيّ، [١٤٠] ضخم الجثّة، أصلع تمامًا، رجل طيّب، ومكرَّم، ومتواضع، ومحبوب جداً مِن رعيّته، كما يستحق، وعندما كنت أنا في القاهرة، كان قد مرّ على انتخابه ستّ سنوات، وأطلب له مِن السماء كلّ خير.

الفصل الثانى

فى الرتب الكنسيّة للأقباط ، ويجرى وصفها بدقّة

بعد أنْ قدَّمنا فى الفصل السابق بيانًا عن بطريرك الأقباط، رئيس اكْليرُس مصر، يقتضى السياق أنْ نتكلَّم الآن أيضًا عن باقى رجال الكنيسة التابعين له، وبين هؤلاء، يحتلّ الأساقفة مكان الصدارة.

الأساقفة التابعون لبطريرك الأقباط، سواء فى مصر، أو فى الخارج، عشرة: الأوّل أُسقف [١٤١] «أورشليم»، الثانى أُسقف «البَهْنَسا»، الثالث أُسقف «أطْفيح»، الرابع أُسقف «الفيوم»، الخامس أُسقف «المُحَرَّق»، السادس أُسقف «مَنْفَلوط»، السابع أُسقف «أسيوط»، الثامن أُسقف «أبوتيج»، التاسع أُسقف «جِرْجا»، العاشر أُسقف «نَقادة»، بعد جِرْجا. ويصل عددهم إلى أحد عشر، إذا أحصينا مطران الحبشة؛ لأنّه هو أيضًا يتبع البطريرك نفسه.

الرتبة التالية فى الكرامة الكنسيَّة، بعد الأساقفة يحتلّها «القُمُّصات» [القمامصة]، أىْ رؤساء الكهنة، وهناك عدد كبير جدًا منهم. ثمّ يلى «القَسّيسات» [القسوس أو القُسُس]، أىْ الكهنة، ثمّ «الشَمَّاسات» [الشمامسة]، أى الدياكونيون، وفى المرتبة الأخيرة يأتى «الأنَغْنُسْطيون»، أىّ القرّاء، والمرتّلون.

كلّ هؤلاء الأشخاص الكنسيين هم رجال بؤساء، فقراء، بسطاء، يشعرون بالرضى، إذا قُدِّم لهم «طبيخ»، (أىْ طبق مِن الخشب مملوء بالعدس، [١٤٢] أو الحمّص، أو نوع آخر مِن البقول، بخبز مفتوت فيه) وجبن أبيض، مسمّى فى اللغة العربيّة «جبن

حلوم»، ببصل، وفجل، وبلح. يتجولون بملابس حقيرة، وبثياب متسخة وممزقة، ويمشى القسم الأكبر منهم حفاة. يسرون بأىّ أجر زهيد، حتى لا يكادون يستطيعون الاحتفاظ بحمار فى الإصطبل، ويركبونه فى كثير من الأحيان بدون بردعة، وبدون لجام. تمرّ أحيانًا أسابيع، لا يلمسون فيها نقوداً، ويبقون على قيد الحياة بقليل من الصدقة يتكرم بها عليهم أشخاص أتقياء؛ أو يكسبون خبزهم بفلاحة الأرض، أو ببعض الحرف، التى تعلّموها؛ لكى ينفقوا على أنفسهم وعائلتهم. لا يعرفون ما هو العالم، ولا يفكّرون فيه، ولكن يحيون على سجيّتهم. إذا سألتموهم أىّ شىء، [١٤٣] يجيبون: «ما بَعْرَفْشى»، أىْ لا أعرف ذلك. هناك البعض منهم، يعرفون القراءة بمشقّة. من حيث أصلهم هم على الأكثر فلاّحون، ولا يعرفون الحديث عن شىء، إلاّ عن البقول، والبصل، والثوم، والكتّان، واللبن، والسمن، وأشياء مشابهة خاصّة بالفلاّحين. ولكن بالنسبة إلى تصرّفهم، وحياتهم كمسيحيين، يمكننى القول بصدق، إنّهم لو لم يكونوا منشقّين، لكانوا أفضل أهل العالم. إنّهم مُحْسِنون، غيورون فى فريضة الصيام، ولا يهينون أبداً شخصاً ما، إلاّ بسبب السذاجة المحضة. يحفظون قلبهم دائما مرتفعًا إلى الله، وهم يصلّون، ويتنهّدون. كلّ رجائهم مؤسّس على رحمة الله؛ ولذا نسمعهم دائمًا يقولون: «الله كريم»، أىْ الله مُحْسِن؛ أو «الله يُهَوِّن»، أىْ الله سيساعدنا، ويحتملون كلّ إهانة من الأتراك بصبر كبير جداً، حباً فى المسيح.

[١٤٤] الفصل الثالث

فى العبادة الإلهيّة ، وشعائر الأقباط على وجه العموم

مساء يوم السبت، فى الساعة الثانية عشرة ليلاً، يتوجّه الكاهن مع خدّامه إلى الكنيسة، ويرتّلون صلاة الغروب [تسبحة عشيّة]، التى تستغرق نحو الساعة، ولكن يشارك فيها قليل مِن الناس، بسبب تأخُّر الوقت. عند نهاية صلاة الغروب، ينامون فى الكنيسة، ومَن لا يريد النوم يدخِّن التبغ، أو يشرب القهوة، أو يتجاذب أطراف الحديث مع رفاقه.

بعد منتصف الليل بساعتين، يستيقظون لصلاة باكر، ولترتيل القدّاس، ويدمجون الواحد مع الآخر، طبقًا لعادة الكنيسة الأُولى، ويشارك الشعب بأعداد كبيرة فى هذا القدّاس.

[١٤٥] شعائرهم الأساسيّة التى يحافظون عليها لدى دخول الكنيسة هى:

كلّ واحد، سواء كان كاهنًا، أو علمانيًا، لدى دخوله الكنيسة، يخلع حذاءه، يقبِّل الأرض أمام باب «الهيكل» (وهو مكان خاصّ على هيئة كنيسة صغيرة، حيث يقوم المذبح)، ثمّ [يقبِّل] الباب، أىْ عتبة هذا الباب. بعد ذلك يقترب مِن رئيس الكهنة فى الساعة الحاضرة، ويقبِّل يده، ويحنى رأسه لكى يضع هو يده عليه، ويباركه. ويصنع هكذا مع سائر الكهنة الآخرين والرهبان القائمين هناك، والذين يبقون فى الخورُس فى دائرة حول «الهيكل»، مستندين على عكّاز. بعد عمل هذا، يتوجّه [المؤمن] لإكرام جميع رُفات القدّيسين، أو الشهداء، المحفوظة فى تلك الكنيسة؛ وهى عادةٌ موضوعة

فى [١٤٦] صناديق [أنابيب]، فوق مائدة مِن الخشب، موضوعة فى الحوائط، مرتفعة عن الأرض بدرجة تسمح بالوصول إليها باليد، وتُوْقَد أمامها مصابيح، وشموع، يحملها باستمرار المسيحيون؛ لكى يشعلوها أمام هذه الرُفات. ويلمس [المؤمن] كلّ واحد مِن هذه الصناديق، ويقبّل اليد التى لمستها. بعد زيارة هذه الرُفات كلّها، يُعْطى له هو أيضًا عكّازًا، ويقف على جانب لإتمام صلاته. والعادة لدى هؤلاء الناس، ولدى شعوب شرقيّة أُخرى أنْ لا يجلسوا أبدًا فى الكنيسة، ولا يركعوا، ولكن يظلّون دائمًا واقفين. عندما تُقْرأ العظة على إنجيل اليوم، وعندما تكون العظة مفرطة الطول، حينئذٍ يجلسون على الأرض.

عندما يكون البطريرك حاضراً (ولكن لا يقيم القدّاس) [١٤٧] يجلس هو نفسه على العرش أعلى مِن الكهنة، ويحمل فى يده صليبًا مِن النحاس، أمامه هو أيضًا، بعد تقديم آيات الاحترام الاعتياديّة أمام «الهيكل» (أيْ الكنيسة الصغيرة حيث يقوم المذبح)، أىّ شخص يدخل يجب عليه تقديم آيات الاحترام الواجبة، بالركوع، وتقبيل الأرض أمامه، ثمّ النهوض، وتقبيل الصليب أيضًا، ويده، ووضعها على الرأس، ثمّ ينتقل [المؤمن] لأخذ بركة باقى الكهنة والرهبان الحاضرين بوضع أيديهم على الرأس، كما ذكرنا سابقًا.

بعد ذلك يبدأ هؤلاء القدّاسَ باحتفال كبير. يفتح الكاهن المُحْتَفِل باب «الهيكل»، ويقوم بآيات الاحترام أمامه، حيث يركع، ويقبِّل الأرض أمامه، ثمّ يقبِّل [الباب] يمينًا وشمالاً، بعد ذلك يدور ويقبِّل مكان رجلَيه، أىْ يقبِّل [١٤٨] الأرض على شكل صليب. ثمّ يدخل إلى الكنيسة الصغيرة [الهيكل]، ويبدأ صلواته، والذين فى الخارج يجاوبونه على التوالي. ويقدِّم «الشمّاس» (أيْ الدياكون) بوشاحه [ببَطْرَشيله] المبخرةَ للكاهن المُحْتَفِل، الذى يبخِّر المذبح، عدّة مرّات، مِن فوق على شكل صليب، ومِن كلّ ناحية. ثمّ يخرج مِن «الهيكل»، ويبخِّر الجميع كافّةً، وهو يصلّى دائمًا، وعندما يُبَخِّر الشعبُ، يجتهدون فى جذب الدخان بأيديهم، ومسح وجوههم به، وينزلون باليد مِن الوجه إلى اللحية، ويقومون بهذا كنوع مِن التقوى، كما أعتقد.

قبل الإنجيل، يقرأون باللغة العربيّة بعض السيَر من السنكْسار المرتَّبة لذلك اليوم، وهذا الكتاب هو كتاب سيَر القدّيسين والشهداء، وعلى الأخصّ قدّيسي بلاد الشرق، [١٤٩] وهو مقسَّم على اثنى عشر شهراً، ولكلّ يوم من الشهر سيَره الخاصّة المرتَّبة للقراءة، ولهذا الكتاب اعتبار كبير لديهم، وقد أحضرته معي.

عند [ترتيلة] «قدّوس»، يضربون بقطع صغيرة من الخشب على بعض الآلات من الأبنوس، ويسمّونها «ناقوس» (ويحتفظون بكميّات كبيرة منها في كنائسهم)، الضوضاء التي يحدثها تشبه إلى حدّ ما نغمة موسيقيّة.

ليس لديهم وُعّاظ، وليس أولئك الكهنة الطيّبون بمؤهّلين لذلك، وبدلاً من العظة تُقْرأ بعد الإنجيل عظةٌ من كتاب يدعونه «تفاسير» (أيْ الشرح)، وهي مقتبسة من الآباء القدّيسين، كالقدّيس باسيليوس، والقدّيس [يوحنّا] فم الذهب، والقدّيس كيرلُّس، والقدّيس تاوفيلُس، والأنبا [بولُس] البوشيّ، وآخرين مشابهين. ومنذ بعض الوقت إلى الآن، بدأ الوعظ [١٥٠]، بالعربيّة، الآباءُ الكبّوتشيون في كنائس الأقباط نفسها، وبواسطة ذلك، كما بسبب سيرتهم المثاليّة أيضًا، يهتدي كثير من الأقباط إلى الإيمان الكاثوليكيّ .

فيما عدا ذلك ينتشر بين الشعب في العبادة الإلهيّة اضطراب كبير لا يتوقّف أبداً، ولكن الآن هناك مَن يدخل، ومَن يخرج، ومَن يشرب، ومَن يثرثر. وكان هذا يزعجني كثيراً، لاسيّما لأنّ ذلك يمنع النساء من سماع الطقوس الإلهيّة، كاللاّتي يكون مكانهنّ بعيداً كثيراً عن الخورُس.

الفصل الرابع

فى البنود الخاصّة بديانتهم ، وفى احتفالاتهم المقدَّسة الخاصّة

١) فى الثالوث الأقدس

يؤمنون أنّ اللّه واحد فى الجوهر، مثلَّث الأقانيم، [١٥١] أىْ الآب، والابن، والروح القدس.

عن المسيح، يؤمنون ويقولون إنّ فيه طبيعة واحدة، ومشيئة واحدة، وإلهيّة واحدة، وإنّ إلهيّته لم تنفصل إطلاقًا عن بشريّته. وهكذا يخلطون الحقيقة الكاثوليكيّة بالهرطقة، وعلى هذا المنوال أيضًا تعليم الأحباش، لا فى هذه المسألة فقط، بل فى المسائل الأُخرى أيضًا، إذ إنّهم خاضعون للبطريرك نفسه، ويتّفقون معهم فى الديانة، حتّى إنّه ذات يوم، كنت أتحدَّث مع بعض الكهنة الأقباط حول هذه المسألة، فى حضور شخص حبشىّ، وقد افتخر هو بقوله إنّ هناك فى الحبشة سبعين ألف دير، وهى تعترف كلّها بتعليم ديُسكورُس [ديُسْقورُس] هذا، ومَن يقلْ بخلاف ذلك يفقد حياته.

عن الروح القدس يؤمنون أنّه ينبثق مِن الآب، ولكن لا مِن الابن. وبالتالى، فى الليتورجيّات [١٥٢] الحبشيّة المطبوعة فى روما، سنة ١٥٤٨، عندما تقرأ عن الروح القدس أنّه ينبثق مِن الآب والابن، يجب أنْ تعرف أنّ هذه الكلمة: «والابن»، قد أضافها الكاثوليك الرومانيون.

٢) فى رئيس كنيستهم

بعد انفصالهم عن [الكنيسة] الرومانيّة، لا يعترفون بأحد رئيسًا لكنيستهم، إلاّ ببطريرك الإسكندريّة، رغم أنّ أقدم المجامع، التى يوافقون عليها إلى وقتنا الحاضر، وعلى الأخصّ المجمع النيقاوىّ فى القانون ٣٧، يعطى المكان الأوّل بين الجميع للبطريرك الرومانى.

٣) فى قدّاسهم، وما يؤمنون به بخصوص التَحَوّل

تكمن عبادتهم الإلهيّة الأساسيّة فى القدّاس، الذى يحتفلون به باللغة العربيّة، باستثناء الإنجيل، [١٥٣] وبعض الصلوات الأُخرى، التى اعتادوا قراءتها باللغة القبطيّة والعربيّة.

يؤمنون هم والأحباش كذلك، مع الكنيسة الكاثوليكيّة، أنّ الخبز والخمر فى التقديس يتحوّلان فى الحقيقة إلى جسد المسيح سيّدنا ودمه. ونجد فى ليتورجيّاتهم كلمات التَبَدُّل والتَغَيُّر صريحة، كما يمكن رؤية ذلك فى النصّ التالى، المأخوذ من الليتورجيّا الحبشيّة للآباء ٣١٨، المجتمعين فى مجمع نيقيه، والذى ترجمته أنا إلى اللغة الإيطاليّة، وهو: «نطلب إليك إذَن، ونتوسّل إليك، أيّها السيّد، أنْ تتكرّم وترسل روحك القدّوس؛ لكىْ ينزل، ويأتى، ويسطع على هذا الخبز، [لكى] يصير جسد إلهنا، ولكى يتبدّل، أو يتغيّر طعم هذه الكأس، ويصير دم المسيح». سأعرض شهادات أُخرى كثيرة [١٥٤] أوضح، وأكثر جلاءً، فى كتاب المجامع، عندما أنشره، بإذْن اللّه.

عندما يرفع الكاهنُ السرَ، يقرع جميع الذين يسمعون القدّاس صدورهم، وينحنون إلى الأرض، ويرسمون نواتهم بعلامة الصليب المقدّسة، ويرفعون عمائمهم قليلاً، ويصلّون. وهذه الحركات هى كذلك علامات جليّة على عبادتهم للشكلَين المقدّسين.

عندما يتناول الكاهن، يُقَسِّم شكل الخبز على شكل صليب، ويلقى [قطعة صغيرة] فى شكل الخمر، ويأكل ثلاث قطع صغيرة، ويشرب كذلك ثلاث ملاعق صغيرة، ويُشْرِك فى ذلك خادمه «الشمّاس» (أىْ الدياكون). بعد ذلك يغسل الكأس عدّة مرّات، ويشرب [الماء]، ويقدّم كذلك بعضه لذلك الخادم. وفى الأخر يغسل يديَه فى الصينيّة، ويشرب ذلك الماء. إلاّ أنّهم لا يحتفظون بالقربان الأقدس بعد القدّاس، ولا [١٥٥] يقدّسونه فى مساكن خاصّة، بل دائمًا فى الكنيسة.

يستعملون فى خدمة القدّاس خبزًا مخمّرًا، يدعونه بعد التقديس «قربانًا»، أىْ المناولة، أو افخارِسْتيا، ولكن قَبْل التقديس يدعونه ببساطة «بركة». وهى قطع مِن الخبز الصغير، مستديرة، وكبيرة كحجم القرش [درهم]، أو دالِّر. ويخبزون منه كميّةً كبيرة فى الليلة السابقة، كما رأيت، ويوزّعونه فى نهاية القدّاس على جميع الحاضرين.

لا يستعملون لخدمة القدّاس خمر الحانات، الذى يعتبرونه دنيويًا، وعندما لا يجدون الخمر، يضعون الزبيب فى الماء، ويعصرونه.

ويحتفظون عادةً بإناء ماء فى «الهيكل» لمزجه مع الخمر، ولغسل الكأس [١٥٦]، وهم يعتبرونها حسب رأيهم مقدّسة. يدخل إذْنُ البطريرك، أو كاهن آخر فى غيابه، إلى «الهيكل»، بعد نهاية القدّاس، ويغسل يديَه بذلك الماء، ويبلّلهما، ويمسح أوّلاً وجهه ولحيته مرّةً واحدة، ثمّ يجلس مع الدياكون على الكرسى، ويمسك صليبًا فى يده. ويلمس البطريرك بيديَه المبلّلتين وجهَ سائر الناس، الذين يقتربون متزاحمين، ويقبّلون الصليب الذى يمسكه الدياكون، والإنجيل الموضوع هناك على كرسى. وبعد لمس الجميع بهذا الشكل، يخرج البطريرك مِن «الهيكل»، ويجلس، ويكسر بعض تلك الخبزات المسمّاة «بركة» إلى قِطَع، ويوزّع منها على كل واحد، يقبّلون يده، وهذا هو أخر القدّاس. يستمرّ هذا الطَقْس مِن الساعة الثانية بعد منتصف الليل، إلى الساعة الواحدة والنصف مِن [١٥٧] النهار. وإذا [سوء] الطالع حدث للكاهن، فى الليلة

السابقة، إنزال ليليّ في الحلم، لا يجوز له الاحتفال [بالقداس] في ذلك اليوم، والذي يحتفل به لا يجوز له تدخين التبغ لمدّة أربع وعشرين ساعة.

٤) في اعترافهم ومناولتهم

لا يعترفون، ولا يتناولون إلاّ في الصوم الأربعينيّ الكبير. يَقْبَل العلمانيون المناولة «تحت كلا الشكلين». يقبلون من الكاهن شكل الخمر بملعقة صغيرة، يدعونها ملعقة الصليب؛ لأنّ في طرفها الذي تُمْسَك به صليبًا صغيرًا. الصبيان هم أيضًا (كما سنقول لاحقًا) تتمّ مناولتهم حالاً بعد العماد.

[١٥٨] ٥) في قراءة الكُتُب المقدّسة

الكتاب المقدّس في لغتهم، أيْ العربيّة، يقرؤه أيّ أحد. وحتّى وإنْ كان فقيرًا، إنْ كان يعرف القراءة، يحتفظ في بيته بالأناجيل الأربعة على الأقل مع مزامير داود.

٦) في أعيادهم

فضلاً عن الأحد طوال السنة، يحتفلون كذلك بالسبت، ويمتنعون عن أيّ نوع من العمل فيه، حتّى وإنْ كان قليلاً، ولا يصومون فيهما، إلاّ [في الأيّام] التي تقع في الصوم الأربعينيّ الكبير، ويقولون إنّهم يتبعون في هذا كتاب تنظيمات الرسل، الذي يدعونه «الدَسْقوليّة»، وقد حملته معي، وهو مكتوب باللغة العربيّة، ولا يحافظون على هذا اقتداءً بالعبرانيين، ولكن فقط، كما يقولون: لأنّ [١٥٩] المسيح سيّدنا أمر به، ورسله القدّيسون.

يحتفلون أيضًا بإكرام كبير، بثمانية الآلام كلّها، من آلام سيّدنا، وهو زمن ندعوه نحن الأسبوع المقدّس، وبعدها [يحتفلون] بثمانية القيامة. يحتفلون كذلك بعيد

صعوده، وبالعنصرة، وبميلاده، وبالغطاس، والتطهير [التقدمة إلى الهيكل]، والتجلّى، وبالقدّيس إسطفانُس أوّل الشهداء، وبجميع الرسل، وقدّيسين آخرين كثيرين معترفين وشهداء، ونجد حياة هؤلاء فى سِنَكْسارهم المذكور سابقًا، وهو حسن الترتيب.

وهم، والأحباش كذلك، شديدو الإكرام للسيّدة العذراء، التى يحتفل هؤلاء [الأخيرون] لكرامتها باثنين وثلاثين عيداً طوال العام، وقد أوردت هنا قائمة هذه الأعياد [١٦٠] لإشباع رغبة الفضوليين، حسب الترتيب الذى وجدته فى كتاب حبشىّ، فى دير الأحباش الواقع فى مصر العليا، فى صحراء «قُسْقام»، بالقرب مِن دير «المُحَرَّق».

يحتفلون إذَن فى شهر «نَحاسِه» [مسرى، النسىء]، الذى يوافق عندنا [شهر] أغسطُس، فى ٧ منه، بالحبل بالعذراء الكلّيّة الطوبى.

فى ١٦ منه، انتقال جسدها الكلّىّ القداسة إلى السماء.

فى ٢١ منه، عيد لها.

فى ١٠ مِن شهر «مَسْكَرَم» [توت]، أىْ سبتمبر، يُحْتَفَل بعيد صورة للعذراء سيّدة صيدْنايا، التى تحولّت بأعجوبة إلى جسد ، ونجد قصّتها موصوفةً بإسهاب فى الكتاب الحبشىّ لعجائب السيّدة العذراء، الذى نسخته فى دير الأحباش المذكور، [١٦١] فضلاً عن ذلك نجد كذلك الكتاب نفسه فى مكتبة مستشار فرنسا الأعظم، السيِّد پيير سيجيه. وقد بدا لى أمرًا غريبًا اهتمامه الكبير بما قلته، وأثناء وجودى الصيف الماضى فى كلونى، لمشاهدة ذلك الدير الذائع الصيت والكنيسة، وجدت كذلك فى خزانة الرُفات بين رُفات أُخرى، سائلاً تساقط مِن تلك الصورة، والكتابة التى كانت على القنّينة هى التالية: «مِن السائل الذى تساقط وسال مِن صورة الطوباويّة مريم، والتى صارت جسداً بالمشيئة الإلهيّة، وهذه الصورة هى مِن صيدْنايا، بالقرب مِن مدينة دمشق فى پَجانْيا». ونجد خطأ فى الكتاب الحبشىّ، حيث تتعين قراءة پَجانْيا بدلاً من صيدْنايا.

في ٢١ منه، يُحْتَفَل بعيد للسيّدة العذراء.

[١٦٢] في ٢٢ من شهر «تَقِمْت» [بابه]، أيْ أكتوبر، عيد للسيّدة العذراء.

في ٦ شهر «خِدار» [هتور]، أيْ نوفمبر، يُحْتَفَل بدخولها المُحَرَّق، في صحراء قُسْقام.

في ٢١ منه، عيد للسيّدة العذراء.

في ٢١ «تَحْساس» [كيهك]، أيْ ديسمبر، عيد دخولها هيكل أُورشليم.

في ٢١ منه، يُحْتَفَل بعيد أعجوبة صنعتها هي في مصر في دير القَلَمون.

في ٢٢ منه، [عيد] لأنها أعطت ثوبًا للقدّيس دِكيسيوس [ايدِلْفُنْسُس التوليديّ] الأسقف، غير مصنوع مِن يد بشر، و[لأنّها أعطت] كرسيًا أُسقفيًا، لم يُسْمَح أبدًا بجلوس أحد مِن الأساقفة عليه، إلاّ للقدّيس دِكيسيوس.

في ٢٨ منه، عشيّة ميلاد سيّدنا.

[١٦٣] في ٢٩ منه، ميلاد سيّدنا.

في ٢١ مِن شهر «طِرّ» [طوبه]، أيْ يناير، انتقال السيّدة العذراء.

في ١٦ مِن شهر «يكاتيت» [أمشير]، أيْ فبراير، عيد لها.

في ٢١ منه، عيد لها.

في ٢١ مِن شهر «مَجابيت» [برمهات]، أيْ مارس، عيد للسيّدة العذراء.

في ٢٩ منه، عيد البشارة.

في ٢١ مِن شهر «ميازْيا» [برموده]، أيْ أبريل، عيد للسيّدة العذراء.

في ١ مِن شهر «جِنْبُت» [بشنس]، أيْ مايو، ميلاد السيّدة العذراء.

فى ٢١ إلى ٢٥ منه، يُحْتَفَل بعيد جَمْيانه [دَمْيانه]، وهو دير شهير يقع بالقرب مِن دمياط، وأثناء هذه الأيّام الخمسة، يتوجّه إليه جميع الأقباط والأحباش، ومِن عادتهم فى هذه الأيّام أنْ تظهر فى تلك [١٦٤] الكنيسة السيّدة العذراء للعيان، وبعد القيام بأعمالهم التقويّة، يقولون: إنّ كلّ واحد منهم بإمكانه أنْ يستدعى ويستحضر مَن شاء مِن القدّيسين، وبالشكل والثياب التى كان يرتديها فى حياته، حاملاً معه كذلك تلك الآلات، التى اسْتُشْهِد بها، وهذا لم أقرأه فى المخطوط الحبشىّ المذكور فقط، لكن حُكى لى كأمر أكيد مِن الأقباط، الذين أكّدوا لى أنّهم حضروا عدّة مرّات ذلك العيد. [١٦٥]. أمّا كيف تحدث هذه الظهورات وما هو رأى أصحابها، فمن السهل التأكّد أنّها مِن حيل الشيطان.

فى ٢٣ منه، عيد.

فى ٢٤ منه، وصول السيّدة العذراء إلى مصر، وهو عيد كبير.

فى ٢٥ منه، يُحْتَفَل بعيد تذكار اليوم الذى غرس فيه سيّدنا يسوع المسيح فى «بُوق» عصا القدّيس يوسف فى الأرض، ومنها ظهرت شجرة زيتون، ما زالت مورقةً إلى يومنا هذا.

فى ٨ مِن شهر «سِنه» [بؤونه]، أىْ يونيو، عيد تذكار العطش الذى شعرت به السيّدة العذراء، وفجّرت قدرةُ اللّه نبع ماء فى مصر، إذا شرب منه المرضى، يبرأون على الفور.

[١٦٦] فى ٢٠ منه، عيد بناء بيتها المقدّس.

فى ٢١ منه، تكريس أو تقديس ذلك البيت المقدّس.

فى ٢١ مِن شهر «حَمْلِه» [أبيب]، أىْ يوليو، عيد.

ولكن لابدّ مِن التنبيه إلى أنّ أيّام الشهور هذه ترد حسب تقويم الأحباش، الذين هم والأقباط كذلك، يحسبون الشهر ثلاثين يومًا فقط، ويضيفون فى نهاية السنة،

لإكماله، خمسة أيّام أخرى، يدعونها «ابِجومينه» [النسيء]، ويبدأون العام في ٢٨ من شهرنا أغسطس، وبالتالي لا تتوافق تماماً مع أيّام تقويمنا، ولكن يمكن معرفتها باستعمال اللوحة الواردة هنا [لم تظهر هذه اللوحة في الطبعة].

يجب عليّ كذلك التنبيه إلى أنّه في تلك الأيّام التي لم أحدّد فيها أيّ عيد، يعود هذا إلى أنّني وجدتها هكذا [١٦٧] في المخطوط المذكور، الذي لا يحدّد سبب العيد. ولكن أعتقد أنّه يُحْتَفَل فيها ببعض أسرار حياة العذراء الطوباويّة، أو لأعجوبة أُخرى أجرتها هي في ذلك اليوم.

٧) في عمادهم

يعمّدون بعد منتصف الليل، وفي نهايته يجري الاحتفال بقدّاس مصحوب بصلوات كثيرة، البعض منها يُقْرأ، والبعض يُرَتَّل باللغة الواحدة أو بالأخرى، أيْ القبطيّة والعربيّة، وبعد أنْ يرتّلوا لبعض الوقت، يحمل الدياكونيون الأطفالَ إلى الهيكل، حيث يجري دهنهم للمرّة الأولى «بالميرون» (أيْ التثبيت)، ويعتقدون أنّ الطفل في تلك الساعة يصبح إنساناً روحانياً جديداً.

وبعد القيام بذلك، يرتّلون من جديد، ثمّ يشرعون في مَسْح الجسد كلّه بسبعة [بستّة] وثلاثين صليباً، [١٦٨] وذلك كتعزيم [إخراج الشياطين]، ثمّ يتابعون الترتيل، وكلّ مرّة تجري فيها هذه الطقوس، تصرخ [تزغرد] النساء الحاضرات، كعلامة فرح، حسب عادة البلد.

في أثناء ذلك، يضع خادم الكنيسة الماء في المعموديّة (وهي عميقة نحو ذراع)، وإليها يقترب الكهنة بعد نهاية طقوسهم في الخورُس. يبارك المُعَمِّدُ الماءَ بسكب [زيت] التثبيت، ويخلطه على شكل صليب، ثمّ يتناول الغلام من ذراعه اليمنى، ورجله اليسرى بيد، ومن رجله اليمنى وذراعه اليسرى باليد الأخرى، مكوِّناً بهذا الشكل صليباً بهذه الأعضاء الصغيرة، ثمّ يغطّسه مرّتين حتّى الرقبة والثالثة كلّه تماماً، حينئذٍ يكسون

الخليقة [الجديدة] بثوب صغير أبيض، ويتابع الكهنة [١٦٩] الترتيل والقراءة، والنساء الصراخ [الزغاريد]. وفى آخر الأمر، ينفخ الكاهن فى وجه الغلام ثلاث مرّات؛ لكى يقبل الروح القدس، كما يقولون، ويؤمنون، وبهذا تنتهى احتفالاتهم بالعماد.

بعد العماد، يناولون المخلوق [الجديد]، ويعملون هذا هكذا: يغمس الكاهن إصبعه فى الكأس، ويضعها فى فم المخلوق، ولكن لا يشركه فى الخبز المقدّس؛ لأنّ الطفل لا يستطيع هضمه بَعْد، ويقولون إنّه حيث دم الربّ، يكون هناك جسده. بعد نهاية الطَقْس كلّه، يشعلون شمعًا كثيراً، ويقومون بدورة فى الكنيسة، وهم يرتّلون. يحمل الدياكونيون الأطفالَ على أذرعتهم، ويسبقهم الكهنة، ويلحق بهم باقى الناس، سواء الرجال أو النساء، الحاضرون وقتئذٍ، [١٧٠] ولا تتوقّف النساء عن القيام بـ"كونشرتو" جميل جداً بصراخهنّ. بعد نهاية الدورة، يتناول الأهل إفطاراً مِن المربّى فى الكنيسة، وفى المساء السابق [يقدمون] عشاءً لجميع الحاضرين، بخلاف التبغ والقهوة اللذين يقدمونهما.

وقد حضرت عماداً مِن البداية إلى النهاية، وهناك قيل لى أنّ عمر الأطفال سبعة شهور. وقال لى أولئك الكهنة أنّ هناك بعض الأطفال عند العماد يكون عمرهم سبع سنوات، وأنّ الكثيرين يموتون بلا عماد، وإنّهم يذهبون إلى بيت الشيطان، وهم يعلّلون ذلك بقولهم إنّه يجب أنْ يكون للأطفال قليل مِن القوة لكى يُعَمَّدوا.

وليس مِن عادتهم مَنْح العماد فى حالة الضرورة، ولكن بدلاً مِن ذلك يمسحونهم بالزيت فقط.

[١٧١] ٨) فى ختانهم

كان مِن عادتهم أيضًا الختان، ولكن بدون قاعدة، وبدون وصيّة، وقد عرفت أنّ الكثيرين كانوا مختونين، والكثيرين غير مختونين. لديهم أيضًا طَقْس لختان الإناث، وهذا الدور تقوم به النساء التركيات فى البيوت الخاصّة، أو بالأحرى فى الحمّامات.

٩) فى زواجهم

يحقّ للكهنة العلمانيين أنْ يقترنوا بعذراء، ولكن بعد موت الزوجة الأولى، لا يصحّ الزواج مرّةً أخرى.

يتزوّج الناس عادةً وهم صغار السن، وقد حضرت زواجًا فى القاهرة وكان الذكر اثنتا عشرة سنة، والأنثى تسع سنوات، وقد سألت والد العريس لماذا زوّج ابنه فى وقت مبكّر؟ أجابنى [١٧٢] أنّ هذه كانت رغبة الابن، ولما سألت إنْ كان يستطيع القيام بواجبه نحو الزوجة، ردّ أنّه لا يشكّ فى ذلك، وأنّه يقوم بما قام به الأزواج الآخرون. ثمّ غادروا الخورُس، وذهبوا لكى يجلسوا فى مكان النساء. ثمّ جاءت امرأة، ووضعت قطعةً صغيرةً مِن السكّر فى يد الزوجة، ورشّت عليها ماء الورد، وكرّرت ذلك ثلاث مرّات، وبالمثل قامت الزوجة بتقديم قطعة سكّر للزوج، الذى قام بتناولها بفمه مِن يد الزوجة، وقام هو بالمثل مع الزوجة، وكلّ مرّة كان واحد منهما يأخذ السكّر، كانت النسوة الحاضرات يهلّلن بالصرخات المعهودة [الزغاريد]، وقاموا بتوزيع السكّر على الحاضرين، ورشّوا ماء الورد على وجوههم، ولا يعنى هذا [١٧٣] الرشّ الثلاثى لماء الورد على السكّر، إلاّ الزوال السريع للسعادة الزوجية، ويعتقدون هم أنّها لا تستمر إلاّ ثلاثة أيّام.

وللأقباط عادة أخرى غريبة فى أعراسهم وقد حُكيت لى كشىء أكيد: أىْ بعد أنْ يوحّدهم الكاهن بالزواج، يقضُّون الليلة الأولى بدون دخول، وفى الليلة التالية يتمّ الاتّحاد، ويقف شخصان بالعصى فى أيديهما أمام باب الغرفة، وبعد أنْ ينتظرا قليلاً، يسألان الزوجين ثلاث مرّات، بينها فترة قصيرة، إنْ كانا قد تعارفا جسديًا، وإذا لم تردّ الزوجة فى المرة الثالثة بالإيجاب، يقوم الاثنان بفتح الباب، وإنْ كان مقفولاً، يفتحانه عنوةً ويضربان الزوج بقسوة.

[١٧٤] ١٠) فى تكريسهم، أو بالأحرى رسامة كهنتهم

لا أستطيع تقديم بيانات أكيدة خاصّة عن التكريس، حيث لا يستطيع دخولَ «الهيكل» إلاّ الذين يُرْسَمون، ولم أتمكّن مِن الرؤية، ولا مِن السؤال عن الطَقْس، وعن التكريس، وعن رسامة الكهنة. يقوم البطريرك بالتكريسات باحتفال كبير، ولكن بما أنّ هؤلاء ليس لهم دخل، أو دخل قليل، لا يصل أحيانًا إلى أربع قطع مِن الثمانية [ريالات] فى السنة. ويواجهون أعباءً كثيرة؛ لأنّه يتعيَّن عليهم القيام فى الكنيسة ليلاً ونهارًا، ولا يستطيعون الاهتمام بأعمالهم، ولذا لا يتقدّم أحد إلى نوال الكهنوت، ولكن البطريرك يجبرهم على ذلك، وأحيانًا بالتهديد. [١٧٥] وقد رأيت سنة ١٦٦٤ فى مصر القديمة البطريرك وهو يقوم بالرسامة، فوضع القميص على واحد بالقوّة، فقاوم هذا بكلّ قدرته، ولكن لم يستطع التملُّص (لأنّ الكهنة الآخرين عاونوا البطريرك)، فانزوى هذا والقميص عليه فى جانب مِن الكنيسة، وبكى بحرارة، ولم يرد بأيّة طريقة أنْ يضع يده على أىّ أحد، لكى يقوم بدرجته المقدّسة، ولم يرد كذلك قبول التهانى مِن الشعب الذى كان سعيدًا برسامته.

وحدث بعد ذلك أنّ هذا الكاهن، الذى أُجْبِر [على الكهنوت]، ذهب فى ذلك المساء إلى تركىّ صاحب نفوذ مِن معارفه، وشكا البطريرك الذى استعمل معه القوّة، وحصل هذا على أمر مِن الباشا بمعاقبة البطريرك وتغريمه ستّة أكياس مِن الدنانير، وإلاّ دمرّ الكنيسة حيث جرت [١٧٦] الرسامة، فاختفى [البطريرك] فى بيت مهجور، واقتضى الأمر أنْ يعفى ذلك الكاهن، ولكن لا أعرف ما آل إليه الأمر؛ لأنّى غادرت القاهرة فى ذلك الوقت.

١١) فى صيامهم

لدى الأقباط أربعة صيامات كبيرة فى السنة، الأوّل قبل الميلاد، فى شهر ديسمبر، ويستمرّ أربعة وعشرين يومًا، والثانى الصوم الأربعينىّ الكبير، ويدعونه

«الصوم الكبير»، وهو يستمرّ خمسة وخمسين يومًا، والثالث صوم رسل سيّدنا، ويدعونه «صوم التلاميذ»، ويبدأ بعد العيد الثالث للعنصرة، ويستمرّ واحدًا وعشرين يومًا. وقد كنت، فى ذلك الوقت بالذات، فى مصر العليا بينهم، وأُجْبِرت أنا أيضًا على المحافظة عليه، حتّى لا أسبّب عثرة، والرابع [١٧٧] صوم السيّدة العذراء فى أغسطُس، ويسمى «صوم العذراء»، ويستمرّ خمسة عشر يومًا، ويحافظون على كل هذه الأصوام محافظةً شديدة؛ لأنّهم لا ينقطعون عن اللحم فحسب، بل وعن مشتقّات الألبان، والبيض وغير ذلك أيضًا، ويأكلون العدس والبازلاء والبقول الأخرى فقط.

بخلاف ذلك يصومون أيضًا كلّ أربعاء وجمعة، حتّى الساعة ٢١، وفى تلك الساعة يتناولون كإفطار قدحًا من القهوة وقليلاً من الخبز المحمّص [البقسماط، أو القراقيش]، وكذلك التبغ كدخان، وفى العشاء يأكلون السمك. لا يصومون يوم السبت، وعندما قلت لهم إنّ الكاثوليك يصومونه، تعجّبوا، وبدا ذلك لهم غريبًا جدًا.

١٢) فى صور كنائسهم وفى تكريمها

لا يحتفظون بتماثيل فى كنائسهم، بل برسومات فقط، [١٧٨] كصُوَر سيّدنا، والسيّدة العذراء، والقدّيس جرجس، والملائكة القدّيسين ميخائيل وروفائيل وغبريال، وآخرين، ويظهرون إكرامًا كبيرًا لها، يقبّلونها، ويشعلون أمامها الشموع والقناديل.

ويؤمنون إيمانًا شديدًا أنّ الله يمنح نِعَمًا غزيرة بواسطة هذه الصور؛ ولذلك فى ضيقاتهم يلجأون إليها. وهناك فى مصر القديمة فى دير القدّيس جرجس صورة لهذا القدّيس، وقد رأيتها بنفسى، وقد أحضروا أمامها مجنونًا، وللحال عاد إليه عقله. وهناك اعتقاد عامّ فى معجزات كثيرة جرت، حتّى أنّه هناك مثلاً يجرى فى مصر بأسرها، ويقول: «إذا كنت مجنونًا، يجب إحضارك إلى القدّيس جرجس».

وحيث إنّ إكرام هؤلاء الناس خاص جدًا نحو السيّدة العذراء القدّيسة، وملكة جميع [١٧٩] القدّيسين، كذلك هناك إكرام خاصّ لصورها المقدّسة التى يشعلون

أمامها باستمرار عدداً كبيراً من القناديل، ويزيّنونها بالأزهار والستور، وينحنون أمامها، ويقدمون النذور، وفى أمراضهم يدهنون أجسامهم بزيت القناديل المشتعلة أمامها، وينالون النِعَم. من صور السيّدة العذراء هذه، هناك عدد كبير فى مصر، وقد رأيتها. وقد وجدت كذلك كتابين حبشيين منسوخين بخط اليد، يحكيان عن عجائب لها ونِعَم جرت من هذه الصور، وكان هذان الكتابان يُقْرآن فى الكنيسة فى أعياد السيّدة العذراء، وهناك حرم شديد جداً، إذا أهملوا قراءتهما فى الأيّام المذكورة. ورغم أنّ هذا يبدو غريبًا، فإنّنى لا أشرح ذلك ؛ لأنّى [١٨٠] سأقوم بترجمتها إلى اللغة الإيطاليّة لفائدة القارئ الكاثوليكى.

فى كتاب عجائب السيّدة العذراء هذا، فى الرقم الثانى عشر، يُحْكى أنّه فى أيّام غبريال بطريرك الإسكندريّة رقم ٨٤ [٨٦]، فى دير القَلَمون فى مصر، كان هناك رئيس دير اسمه سليمان، وهو رجل قدّيس جداً، وكانت فى تلك الكنيسة صورة للسيّدة العذراء معروفة بالمعجزات والنِعَم، التى كانت تجريها فى مصر كلّها. وذات يوم ذهب بعض العرب لتجارتهم فى مصر العليا، وساروا، بتدبير من الله، فى طريق قريب من ذلك الدير، وعندما سمعوا أنّ هناك [صورة] للسيّدة العذراء عجائبية، أرادوا رؤيتها، وقادهم البعض إلى ذلك الدير، فقام الأنبا سليمان [١٨١] باستقبال العرب بحفاوة كبيرة، وقادهم إلى تلك الصورة، ورجاهم أوّلاً أنْ يقوموا أمام الصورة بكلّ ما يقوم به، فوعدوه بذلك. عندما وصلوا أمام الصورة، قام رئيس الدير المذكور بكشف الستر عن الصورة، وركع أمامها ثلاث مرّات، وفعل ثلاثةٌ منهم بالمثل، ولكن الرابع لم يرد ذلك، بل انفجر بشتائم شيطانية ضدّ الصورة المذكورة، وضدّ السيّدة العذراء الكلّيّة القداسة، وأدار لها ظهره كعلامة احتقار، وما إنْ فعل ذلك حتّى بدأ لسانه يخرج من فمه مقدار شبر، وكان يصرّ بأسنانه، ويصرخ كمَمْسوس، واصفرّ، وأوشك على الموت. عندما رأى رفاقه ذلك، توسّلوا إلى القدّيس بدموع زوارف أنْ يشفع فى رفيقهم، فأخذ [١٨٢] من زيت القنديل، ودهن لسانه، فعاد للتوّ إلى مكانه، وسمع الجميع صوتًا كأنّه خارج من الصورة، وقال لرئيس الدير إنّه لا يجب أنْ ينتظر

مضايقةً أخرى من هذا المجدِّف؛ لأنّ ابنها المبارك قرّر موته موتًا سريعًا لدى وصوله إلى بلده، وهذا ما حدث مباشرةً طبقًا لهذه النبوءة.

فى الكتاب ذاته، فى الرقم ١٤، نقرأ أنّه فى عهد البطريرك عينه، كان هناك راهب قدّيس جدًّا فى الدير المذكور، ومكرِّم للسيّدة العذراء، وكان بوّاب الكنيسة هذا، بعد أنْ كان الرهبان الآخرون يؤدّون صلاة المساء، ويهجعون إلى قلاّياتهم، كان يذهب سرًّا إلى الكنيسة، وكان يصلّى أمام [١٨٣] صورة السيّدة العذراء، ويضرب لها ثلاثمائة مطانوة [سجدة]، وفى كلّ مرّة كان يسجد كان يقول: «ياربّى يسوع المسيح، أرنى وجهك، ووجه أمّك الكلّيّة القداسة». واستمرّ على هذا الإكرام بضع سنوات، بدون أنْ يعلم أىّ إنسان بذلك. فى نهاية السنة السابعة، فى الليلة السابقة لأحد أعياد السيّدة العذراء، التى يُحْتَفل بها يوم ٢١ ديسمبر، بينما كان الراهب المذكور مشتعلاً بحرارة التقوى، رأى العذراء الكلّيّة الطوبى، وهى تتلألأ مِن الصورة، وقالت له: «حيث إنّك أتعبت نفسك كثيرًا ورجوت ابنى الحبيب أنْ يُظْهِر لك أمّه، هأنذا إذَنْ، انظر إلىّ، أنا أمّ الحياة، قد أمرنى ابنى أنْ آتى إليك، وأنْ أصنع لك ما تريد». [١٨٤] فأجاب هو: «يا سيّدتى العذراء الكلّيّة القداسة، لا طلب لى إلاّ أنْ تتكرّمى وتتشفعى لى عند ابنك الحبيب، أنْ يكون رءوفًا بى!». فأجابته العذراء: «لقد قبل السيّد طلبك، وبعد ثلاثة أيّام تكون معى فى المكان ذاته حيث أنا». عندما رأى الراهب الضوء الباهر، وسمع الصوت، وقع على الأرض كميت، فمدّت السيّدة العذراء فى تلك الساعة يدها وأنهضته، ثمّ اختفت. بعد هذا ذهب الراهب إلى قلاّيته، وأصابته حمّى شديدة، فأسرع باستدعاء الأسقف، الذى كان فى الدير، فى تلك الساعة، واعترف وقصّ عليه كلّ ما حدث له، وفى نهاية اليوم الثالث مات بقداسة.

ونجد فى الكتاب المذكور، تحت الرقم ٣، كيف أنّه فى دير «العدوية» [١٨٥] (بقرب القاهرة على الشاطئ الشرقىّ للنيل) كانت هناك عادة بالاحتفال كلّ عام يوم ١٠ أغسطس بعيد السيّدة العذراء ، وفى أيّام رئيس الدير رزق الله المولود فى القاهرة، كان هناك، ذات سنة، حضور كبير مِن الرجال والنساء للاحتفال بذلك العيد،

وكان كلّ واحد يرتدى أحسن ما لديه. فلمّا تنبّه العرب فى القرى المجاورة، قرّروا مهاجمة هؤلاء الناس فى الليل، وسرقة جميع ملابسهم. بعد تلاوة صلاة الغروب والقيام بطواف احتفالىّ بصورة عذراء تلك الكنيسة، وبعد ترتيل صلاة نصف الليل والتسابيح، ذهب الجميع للنوم فوق سطح الكنيسة (وهذه عادة فى مصر)، فى الهواء الطلق ، جاء العرب وصعدوا إلى سطح الكنيسة [١٨٦] وسرقوا جميع متعلّقات وملابس هؤلاء الناس. أثناء ذلك سمع رئيس الدير رزق الله عويل الشعب وصراخه، ولمّا عرف سبب ذلك نزل مع جميع الرهبان، وتوجّه إلى صورة السيّدة العذراء المذكورة، وركعوا وصلّوا بأنّاتٍ إلى العذراء الكلّية القداسة، أنْ تتكرّم وتثأر للإهانة التى اقترفها العرب المذكورون، وإلاّ لن يعود أىّ أحد للاحتفال بعيدها. وبينما يصلّون الرهبان سمعوا طرقًا على باب الكنيسة، فأعاد العرب جميع المتعلّقات وسط ذهول وتعجُّب الرهبان، وعندما سألوا العرب عن السبب، كانت الإجابة أنّهم أُصيبوا جميعًا بالعمى وبالعرج، ولم يستطيعوا التحرّك بالمرّة، وأنّهم سمعوا صوتًا، [١٨٧] قال لهم: «إنْ لم تعيدوا أمتعة الناس الذين أتوا إلى عيدى، لن تظلّوا عميانًا وعرجًا فحسب، بل وعند انبلاج الصباح مباشرةً، سيشنقكم حاكم الأرض كلصوص»، وأنّهم عندما سمعوا هذه الكلمات، أعادوا كلّ ما كان قد سرقوه. بعد ذلك ذهبوا جميعًا، ووقفوا أمام صورة السيّدة العذراء المذكورة؛ لكى يشكروها، ولكى يتوسلّوا إليها معًا، لخلاص هؤلاء العرب، الذين ذهبوا هم أيضًا، ووقفوا أمامها، واهتدوا، وشكروا [العذراء] على استعادة صحّتهم، وقاموا بخدمة هؤلاء الرهبان مدى حياتهم.

وهناك عجائب أخرى مشابهة يمكننى قصّها إذا اقتضى الأمر، ولكن بما أنّه يجب إكمال التاريخ، أترك ذلك لوقت مناسب وملائم، لذكر عجائب العذراء.

[١٨٨] ١٣) فى طريقة دفن الأقباط لموتاهم والشعائر التى يتبعونها

يتبعون فى دفن الموتى الشعائر التالية: إذا كان الميت شخصًا رفيعًا يعرضونه وسط الكنيسة، ويحيطونه بعدد كبير مِن المشاعل، ويتلو الكهنة صلاة الموتى طبقًا

لطَقْسـهم، وعند وضـع الميت فى القبـر ترقص حـوله امـرأة وتـغنى [تُعَدِّد]، طبـقًا لما لاحظت، وتصـرخ باقى النسـوة حسب طريـقتهم، والبعض منهنّ يلطِّخن أيديهنّ. أمّا الشعائر الأخرى، التى يمارسها الأتراك أيضًا، فأضرب عنها صفحًا.

بعد نهاية ذلك الجناز الذى رأيته، جرت بعده مباشرةً، على سطح الكنيسة، دعوة للذين حضـروا، وكـان الطعـام يتكوّن من طبق مِن [١٨٩] البـازلاّء مع قليل مِن اللحم داخله، وأمّا الخبز فحسب ما يريدون، رغم أنّه كان قد حضـر أكثـر مِن مائتى رجل وامرأة، أمّـا البطريرك وبعض الكهنة وأعيان الأقباط فقد دُعوا إلى حجرة خاصّة، وخُدِموا أكثر مِن الآخرين، ودُعيت أنا معهم، وكنت بجانب البطريرك.

ومِن عادتهم إقامة الدعوات بعد العمادات والجنازات وقبل قبول المناولة المقدّسة، وإنّما هذا طَقْس قديم أدخلته الكنيسة، ولاسيّما قبل المناولة، اقتداءً بعشاء سيّدنا الأخير، وكانت هذه العادة جاريةً زمن الرسل، طبقًا لما نقرؤه فى رسالة القديس بولُس الأول إلى كورينثُس، فى الفصل ١١، فقرة ٢٠ و٢١، حيث [١٩٠] يُقَوِّم الرسول بعضَ أخطائهم التى كانوا يقترفونها فى المناولة، وفى العشاء العامّ، الذى أشرنا إليه، كان الآباء القدّيسون يسمّون هذه الدعوات «أغابِه» أى «مسرّة»، أو «محبّة»؛ لأنّها كانت رموز أخوّة، ووحدة نفوس، وهم يعالجون ذلك كثيراً، وعلى الأخصّ القدّيس يوحنّا فم الذهب، فى عظته على كلمات القدّيس بولُس: «وأنتم إذا ما اجتمعتم»، وتِرتُلْيانُس فى الفصل ٣٩ من دفاعه.

بعد إقامة الجناز بشهر [٤٠ يومًا] يصلّون قدّاسًا كبيرًا على الميت، ويتلون كذلك فَرْض الموتى علانيةً فى الكنيسة.

[١٩١] الفصل الخامس

فى رهبان الأقباط ، وفى نظامهم وطريقة عيشهم

بما أنّ مصر كانت المصدر الأوّل والينبوع الذى انبثقت منه الحياة الرهبانية، ومنه انتشرت إلى جميع باقى أنحاء العالم؛ لذا فمن المنطقىّ أنْ نقول عنها شيئًا، وأنْ نوضّح الحالة التى وجدناها عليها.

لكن بما أنّه لا شىء ثابت فى هذا العالم، وأنّ جميع الأشياء تتغيّر مع الزمن، هكذا نرى أنّ الرهبانيّات نفسها، حتّى الأكثر حرارة فى بدايتها، مع مضىّ الزمن والعادة، تغيّر وجهها، حتّى أنّها لا تُعْرَف بالنسبة إلى حالتها الأولى. الشىء نفسه أستطيع [١٩٢] أنْ أوكّد أنّنى لاحظته حقيقة فى مصر. إنّ رهبان اليوم يختلفون ويبتعدون كثيرًا عن تلك القداسة، التى كان ينتهجها آباؤهم الأقدمون، حتّى أنّنى لا أبتعد عن الصواب إذا قلت إنّ هناك تشابهًا أكبر بين ضوء النهار وظلام الليل، أكثر مِن التشابه الملاحَظ بين رهبان الأمس ورهبان اليوم. تلك الأديرة التى كانت تتميَّز قديمًا بالقداسة، وكانت فى الماضى مأهولة برجال بارزين ومتزينين بكلّ فضيلة وقداسة، انحطّت فى وقتنا الحاضر، وصارت كمأوى لأحقر أُناس العالم.

سأحاول أنْ أقدّم وصفًا حيًا بقدر الإمكان لحياة الرهبان القاطنين فيها. مِن المعروف أنّ سائر [قوانين] الرهبانيات تكمن عادةً [١٩٣] أساسًا فى المحافظة على النذور الثلاثة الرئيسيّة، وهى نذر العفة، والفقر والطاعة، ورغم أنّ هؤلاء الرهبان يحافظون على الطاعة والفقر بالطريقة التى سأبيّنها، ويحيون فى العزوبيّة، فإنى رأيت، فى دير المُحَرَّق وفى دير الأحباش غير البعيد منه، كثيرًا مِن الإناث المسنّات

والشابات يسكنّ هناك، ويتعاطين مع أُولئك الرهبان، في كلّ ساعة وكلّ لحظة. وبالتالي فبوسع كلّ إنسان أنْ يرى بنفسه أيّ نوع مِن العفّة كان يحافظ عليها الراهب المُعَرَّض لفقدها هكذا سريعًا.

يحافظون على نذر الفقر محافظةً جيِّدة، ولكن للحاجة أكثر منه بسبب النذر، كما اعتقد؛ لأنهم الفقر ذاته. إنّهم بؤساء رثّو الثياب، وقذرون، حتى أنّني كنت أشعر بالضيق بقيامهم حولي. [١٩٤] عندما وصلت إلى الديرين المذكورين، كان الواحد يسألني عن حذاء، والآخر كان يريد رباطًا حول القبّعة، وآخر كان يريد شيئًا آخر. كان يلزم دائمًا، للعيش بسلام، وضع اليد على المحفظة؛ لتقديم بعض النقود، لشراء التبغ. كان هناك واحد منهم عريانًا تمامًا. يمكن الاستنتاج مِن هذا نوع عفة هؤلاء الرهبان، نظرًا لهذا العريّ الفاضح. كان البعض الآخر يرتدي القليل مِن الثياب، التي لا تكاد تخفي عورة الجسم، ومع ذلك يحيون باستمرار مع الإناث.

لكي أصف كذلك مساكنهم وقلاليهم، ولكي نتعرّف على حالتهم الفقيرة والمزرية، يكفيني أنْ أقول إنّها مبنية مِن الطوب اللبن، ولها في العادة أبواب منخفضة [١٩٥] وصغيرة، حتى أنّه لا يمكن دخولها إلاّ بمشقّة والمرء منحنٍ، وهي بلا نوافذ، والبعض منها مفتوح نحو السماء، والبعض متهدِّم الأسوار، وكلّها ممتلئة بالحشرات والقانورات. في دير الأحباش، عندما فتحت القلاّية التي خصّصها لي رئيس الدير كسكن (وكانت واحدة مِن أفضلها)، هاجمني جيش مِن الوطاويط، أصابني منظرها بالرعب والخوف، حتّى أنّي كنت على وشك العودة إلى مَنْفَلوط، التي كنت قد جئت منها.

أمّا بالنسبة إلى نذر الطاعة، الذي يعتبره الرهبان من أهمّ النذور، ويتضمّن باقيها، أعتقد أنّهم يحافظون عليه، ولكن أستطيع القول إنّني لم أجد أيّ أثر له عندهم؛ لأنّي لاحظت دائمًا [١٩٦] أنّ كلّ واحد كان يعمل ما يريد، بدون اعتبار للرئيس، أو لأيّ قانون.

إنّ نظام رهبان مصر هؤلاء هو واحد، أيْ ذلك الذي تركه لهم بطريركهم [أبوهم] القدّيس أنطونيوس، الذي يبعد ديره عن القاهرة باتّجاه البحر الأحمر (أيْ نحو الشرق)، ما بين ستّة أو سبعة أيّام، وهو في مكان قفر، وبعيد جداً، ويصعب الوصول إليه. في هذا الدير وحده (ربّما أيضًا في دير القدّيس مكاريوس، تلميذ القدّيس أنطونيوس) يعيش الرهبان إلى اليوم بمحافظة شديدة على القوانين، ينهجون حياة جماعيّة، ويحافظون على الصمت، وتُبْعَد الإناث عن الدير، ولا يأكلون أبدًا لحمًا بل سمكًا وبيضًا فقط، أو بالأكثر أعشابًا، وعسلاً، وبقولاً، وفاكهة مجفّفة. يتلون بانتظام فَرْض النهار في الساعات الواجبة، وهم [١٩٧] متحضّرون أيضًا قليلاً، وليسوا جهلاء كما في الأديرة الأخرى.

لا نجد، خارجًا عن ذلك، في جميع الأديرة الأخرى إلاّ جهلاً كبيراً وتوحُّشًا، ويعيش الرهبان فيها حياةً أقرب إلى حياة الحيوانات منها إلى حياة البشر.

الرداء الذي يميِّز الرهبان عن الكهنة العلمانيين هو غطاء الرأس، وهو مِن قماش أسود، على مقاس رأس الراهب، ويحملونه تحت العمّة كأنّه قبّعة، ويدعونه «كلوسه». خلف غطاء الرأس، هناك شيء مخيط، كأنّه درع مِن القماش ذاته، عرضه شبر، ويصل إلى الركبتَين، إلاّ أنّه تحت الثوب، فلا يُرى مِن الخارج، يحملون كذلك دائمًا في أيديهم عكّازًا يستندون عليه وقت الصلاة، أو عندما يحضرون الفروض الإلهيّة.

[١٨٤] الفصل السادس

نذكر فيه جميع أديرة الأقباط وكنائسهم، في مصر، مِن القاهرة ضدّ اتّجاه المياه على طول النيل

بما أنّه قد طُلِب منى بإلحاح أكثر مِن أىّ شيء آخر، أنْ أستخبر بالتدقيق عن الأمور الخاصّة بالحالة الكنسية، وبديانة هذا الشعب، فقد دفعني حبّ الاستطلاع إلى معرفة عدد الأديرة والكنائس التى يمتلكها الأقباط فى مصر بأسرها، وقد حصلت على المعلومات بالطريقة التالية:

جمعت فى القاهرة، فى سكن الرهبان السريان، المدعو بالعربيّة «عزبة السريان» (بما أنّه الآن ليس هناك رهبان مِن هذه الأمّة فى مصر [١٩٩] يُسْتَخدم هذا سكنًا لرهبان القدّيس مكاريوس)، فى الشارع المدعو «حارة المَقْس»، أقول إنّى جمعت، لبضعة أسابيع، البعض مِن أمهر الرهبان الأقباط، الذين كانوا هناك، وقرّرت لهم أجرًا على تعبهم، وكان بينهم أيضًا رئيس دير العذراء، فى برّيّة القدّيس مكاريوس. استعلمت مِن هؤلاء الرهبان عن جميع الكنائس والأديرة التى يملكونها فى مصر. كنت أنا الرئيس والمدير لهذا الاجتماع، وكان الرهبان يذكرون بترتيب قائمة الأديرة، كلّ واحد حسب يومه، وكان باقى الرهبان يدقّقون فى حقيقة ما كان يقوله المتحدّث. كنت أتركهم يتناقشون إلى أنْ يتفقوا جميعًا فيما بينهم، وكنت أنا أكتب ما كانوا يستقرّون عليه كحقيقة، وكان يفعل الشيء نفسه [٢٠٠] رئيس الدير، باللغة العربيّة. وهذا ما جرى الاتّفاق عليه حسب الترتيب. بما أنّ القاهرة هى رأس مصر بأسرها، نبدأ مِن هنا بذكر جميع الأديرة والكنائس فيها، ثمّ بكنائس وأديرة

مصر القديمة، وبعد نهاية هذه، كنائس وأديرة مصر تابعين مجرى النيل عكس اتّجاه المياه، ونضع فى الاعتبار الكنائس والأديرة القائمة على جانبَى النيل، ثمّ نعود إلى القاهرة، ونبحث عن الكنائس والأديرة حتى الإسكندريّة ودمياط، حيث تنتهى مصر.

الكنائس القائمة إذَنْ وسط القاهرة هى التالية:

فى الشارع المدعو «حارة زويله» (حيث يسكن البطريرك)، كنيسة كبيرة تدعى كنيسة السيّدة العذراء، وهى [٢٠١] مقرّ البطريرك، هناك فوق الكنيسة ذاتها كنيستان أُخريان، أىْ كنيسة الأحباش، وكنيسة الأرمن، وللثلاث سور واحد.

فى «حارة الروم» أىْ شارع اليونانيين، كنيسة السيّدة العذراء، وهى مخصّصة لسكن البطاركة.

فى مصر القديمة كنيسة الطوباوىّ الشهيد مارى مينا الذى ندعوه نحن القدّيس منّا.

فى «حارة البطرك»، أىْ فى شارع البطريرك، كنيستان متجاورتان، واحدة اسمها كنيسة الطوباوىّ مركوريوس، حيث يسكن البطريرك، والثانية كنيسة القديس أنبا شنوده، أىْ الطوباوىّ آبا سنوتيوس، كما ندعوه نحن، وكان واحد من القديسين الأربعة الكبار فى مصر.

فى «قصر الشَمْع»، كنيسة السيّدة العذراء.

[٢٠٢] فى «المعلقة» كنيسة قديمة جداً للسيّدة العذراء.

فى «قصريّة الريحان»، كنيسة القدّيس جرجس [سرجيوس]. تحت هذه الكنيسة مغارة اختبأ فيها لوقت طويل سيّدنا يسوع المسيح مع أمّه مريم الكلّيّة القداسة، عندما كان هارباً من مطاردة هيرودُس، وقد زرتها بتقوى خاصّة، ثمّ هناك أيضًا كنيسة القدّيسة بَرْبارا.

بقرب هذه الكنيسة، فى الشارع المسمّى «درب الثقة»، دير راهبات وكنيسة على اسم القدّيس جرجس، حيث صورته العجائبية، التى تحدثنا عنها سابقًا.

خارج مصر القديمة، وبين خرائب هذه المدينة (والتى تكوِّن جبلاً مِن الشقف والأحجار)، ثلاث كنائس فى صفّ واحد، الأولى اسمها «بابلون الدرج» للسيّدة العذراء والثانية للطوباوىّ [٢٠٣] يوحنّا أبوقير [يوحنّا وأبوقير]، والثالثة للطوباوىّ تادرُس، وقد قضيت فى هذه الكنيسة ليلةً، وحضرت فيها عمادًا وصفته سابقًا.

لاحظ أنّه فى بابيلون كنيسة قديمة جدًّا تحت الأرض مِن عصر الرسل، وقد ذكر لى الأقباط عدّة قصص تحتاج إلى فَحْص جيّد، وهم يؤمنون أنّها هى الكنيسة التى يذكرها القدّيس بطرُس فى رسالته الأولى، فى الفصل ٥ آية ١٣، وهنا بالقرب منها أيضًا كنيسة القدّيس ميخائيل رئيس الملائكة.

الكنائس خارج القاهرة على طول البلد هى التالية:

فى «طُره»، كنيسة القدّيس جرجس.

فى دير «العَدَويّه»، الواقع بقرب النيل مِن جهة الشرق، كنيسة السيّدة العذراء، بصورة عجائبية لها.

[٢٠٤] فى الجنوب وعلى الشاطئ الشرقى دير الطوباوىّ «آبا برسوم العريان»، أىْ الطوباوىّ برسوميوس، الذى كان يتجوّل دائمًا عريانًا، وهناك دُفِن.

فى «أطْفيح»، نحو الشرق، كنيسة القدّيسَين بطرُس وبولُس.

فى «الميمون»، نحو الشرق، دير القدّيس أنطونيوس.

فى «بياض»، نحو الشرق، كنيسة السيّدة العذراء.

فى «أبوالنُمْرُس» نحو الغرب، دير القدّيسين كُزْما ودميان، حيث كنت أنا، وفى هذه الكنيسة ذراع أحد هذين القدّيسين.

فى «طموه»، نحو الغرب، دير الطوباوىّ مِركوريوس.

فى «منيا المير» [مُنا الأمير]، نحو الغرب، كنيسة القدّيس تادْرُس.

فى «اللاهون بالحمّام»، نحو الغرب، دير السيّدة العذراء.

[٢٠٥] فى دير «الخَشَبَة»، نحو الغرب، كنيسة الملاك غبريال.

فى دير «السَّب» [الصَفّ] على الجبل، كنيسة رئيس الملائكة غبريال. يقع الدير على الشاطئ الغربىّ للنيل.

فى «سَدَمَنْت»، دير القدّيس جرجس.

فى «سَنّورِس»، كنيسة سيّدنا.

فى «دِسْيا»، بقرب الفيوم، كنيسة الطوباوىّ تادْرُس.

بعيدًا عن ذلك على الشاطئ نفسه دير الطوباوىّ آبا صموئيل على جبل القَلَمون، حيث [صورة] عجائبية للسيّدة العذراء، تحدّثنا عنها سابقًا.

فى دير «السَنْقوريّه»، نحو الغرب، كنيسة الطوباوىّ تادْرُس الشهيد.

فى «شِنَرا»، نحو الغرب بالقرب مِن نهر [بحر] يوسف ابن أبى الآباء [٢٠٦] يعقوب، كنيسة الطوباوىّ آبا مَكْسي.

بالقرب مِن «البَهْنَسا»، نحو الغرب، فى دير الجَرْنوس، كنيسة السيّدة العذراء. مِن هنا مرّ المسيح سيّدنا مع أمّه الكلّيّة القداسة، وهو فى طريقه إلى قُسْقام. هناك كذلك مقياس للنيل كمقياس جزيرة المقياس، وهذا يجب التحقّق منه بتدقيق أكثر.

فى «بِبّا»، نحو الغرب، دير القدّيس جرجس.

فى «الفَنْت»، نحو الغرب، كنيسة القدّيس جرجس.

فى «الكُفور»، كنيسة السيّدة العذراء.

فى «البيها» [البيهو]، نحو الغرب، كنيسة آبا بَسْخَريون.

فى «دير البَكَرة»، نحو الشرق، على جبل الطير (ودُعى بسبب بكرة بئر قريبة لرفع ماء [٢٠٧] النيل) كنيسة السيّدة العذراء. الدير المذكور قائم فى مكان منعزل على [جبل] الطير وهو جبل صعب التسلُّق، ولقد رأيته وأنا مسافر على النيل، نحو الشمال من مَنْفَلوط.

فى «المِنْيا»، مدينة كبيرة جداً على جانب النيل من الجهة الغربيّة، كنيستان الأولى على اسم القدّيس جرجس والثانية على اسم القدّيس تادْرُس، وقد زرت المدينة مرّتين.

فى «طوبا» [طوه]، كنيسة السيّدة العذراء.

فى «بيوها»، دير آبا هور الشهيد.

فى «القصر»، نحو الغرب، كنيسة السيّدة العذراء.

بعد «القصر» على الجانب ذاته، دير الطوباوىّ ابيفانيوس [أبوفانا] على نهر [بحر] يوسف.

فى «مَنْهَرى»، نحو الغرب، كنيسة الطوباوىّ يوحنّا أبوقير الشهيد.

[٢٠٨] فى «أبوقُرْقاص»، نحو الغرب، كنيسة الطوباوىّ تادْرُس.

فى «البياضيّه»، دير السيّدة العذراء.

فى مدينة «أنْصَنا»، نحو الشرق، ديران، الأوّل للقدّيس يوحنّا الصغير، ويدعونه هم «أبو حِنّس القصير»، والثانى للطوباىّ آبا بيشوى.

في «ملَّوى»، وهى مدينة كبيرة على النيل، نحو الغرب، كنيسة القدّيس ميخائيل رئيس الملائكة، وقد زرتها مرّتين.

في «دَيْروط الشريف»، نحو الغرب، دير الطوباويّ سرابامون الأسقف والشهيد.

في «بِبْلاو»، نحو الغرب، كنيسة الطوباويّ تادْرُس الشهيد.

في «صَنَبو»، ديران، الأوّل للطوباويّ مارى مينا والثانى للطوباويّ تادْرُس المشرقىّ، وكذلك كنيسة القدّيس جرجس.

[٢٠٩] في «مِير»، كنيستان، الأولى للقدّيس جرجس، والثانية للطوباوىّ كلاوديوس الشهيد.

في «القوصيّه»، نحو الغرب، كنيستان، الأولى للقدّيس يوحنّا المعمدان، والثانية للطوباويّ كلاوديوس، وقد زرتهما.

في «بُوق»، نحو الغرب، كنيسة للقدّيس ميخائيل رئيس الملائكة. هنا مرّ المسيح سيّدنا، وهو فى طريقه إلى المُحَرَّق. هناك كذلك شجرة الزيتون، التى نمت مِن عصا القدّيس يوسف، وكان قد غرسها سيّدنا فى الأرض، وتزهر إلى يومنا هذا، وثمّة نبوءة قديمة عنها، أنّها يجب أنْ تزهر إلى يوم الدينونة، وقد حملت معى فرعيَن مِن أغصانها.

في «التِمْساحيّه»، نحو الغرب، كنيسة الطوباويّ تادْرُس.

في «بَلوط»، نحو الغرب، كنيسة القدّيس جرجس.

[٢١٠] في «أمّ القصور»، كنيسة القدّيس يوحنّا الهرقلى.

في «التّتاليه»، كنيسة الملاك روفائيل.

فى «بنى غالب»، كنيسة الملاك غبريال.

فى بريّة «قُسْقام»، دير المُحَرَّق الشهير، حيث أقام فترةً سيّدنا، مع أمّه الكلّيّة القداسة، والقدّيس يوسف، ومريم سالومى.

بعيدًا عن هذا الدير بمقدار رمية حجر، دير القدّيسَين بطرُس وبولُس للأحباش. وهناك، كما فى مَنْفَلوط، وهى مدينة غير بعيدة، توقّفت نحو شهرين، وقرأت، ونسخت كثيرًا مِن الكُتُب الحبشيّة، وقد حصلت على رخصة نسخ الكُتُب هذه مِن بطريرك الأقباط، الذى أعطانى رسائل توصية إلى قمُّص المُحَرَّق، وإلى كبار رجال مَنْفَلوط، الذين [٢١١] لم يستقبلونى بحفاوة كبيرة جدًّا فى بيوتهم فحسب، بل استضافونى كذلك على نفقتهم طوال ذلك الوقت الذى قضيّته هناك. بل أكثر مِن ذلك، كانوا يوفّرون لى الدابّة للتنقُّل، وكان يرافقنى دائمًا واحد منهم، كلّما أردت الانتقال إلى مكان آخر قريب؛ لكى أشاهد أو أستعلم عن شىء ما. ثمّ عندما مرضت، كان يرعانى دائمًا واحد منهم ليل نهار، وعندما رأوا أنّ مرضى كان خطيرًا، استأجروا مركبًا على حسابهم، وأعطونى رفيقًا، وسلّمونى فى يد بطريرك القاهرة. وعن هذا الأمر أُخْبِر، لكى يعرف العالم عِظَم محبّة هؤلاء المسيحيين. هم يبادرون الفرنج الآتين إليهم بذات الاحترام الكبير، الذى يكنّونه لبطريركهم. [٢١٢] يقبّلون رسائل التوصية، ويقرّبونها مِن جبهتهم، والبعض الآخر يحملونها إلى المرضى، معتقدين أنّهم يجدون فيها شفاءً مِن أمراضهم، بسبب البركة المكتوبة فيها.

حول هذين الديرين، هناك كذلك مقبرة لمسيحيى مَنْفَلوط والقرى المحيطة، الذين لا يرغبون فى الدفن إلاّ فى هذا المكان المقدّس؛ لأنّه تقدّس مِن سيّدنا برجلَيه المقدّستَين.

فى «الجاولى»، نحو الغرب، دير أبا مِركوريوس أبى سيفين.

على الشاطئ الشرقىّ دير الطوباوىّ مارى مينا المعلّق، ويدعى معلّق؛ لأنّه منحوت فى صخرة، و يلزم لدخوله وللخروج منه، رَفْع المرء وإنزاله بحبل.

فى «المَعابْدَه»، [٢١٣] كنيسة السيِّدة العذراء.

فى «شَقَلْقيل»، نحو الغرب، كنيسة السيِّدة العذراء.

فى «بنى محمَّد الخصوص» نحو الشرق، كنيسة السيِّدة العذراء.

فى «أبْنوب الحمَّام»، ديران، الأوَّل للطوباوىّ بُقْطُر، المدعو سابقًا الشرِّير؛ لأنَّه كان يضطهد المسيحيين، وكان ابن الوزير رومانُس، والثانى للسيِّدة العذراء. هناك كذلك ثلاث كنائس، الأُولى للطوباوىّ بيفام، وكان فى السابق جنديًا، والثانية للقدِّيس يوحنَّا المعمدان، والثالثة للطوباوىّ مِركوريوس.

فى «بنى مُرّ»، كنيسة القدِّيس جرجس.

فى «بِصْرة»، دير القدِّيس تادْرُس.

فى «أسْيوط»، كنيسة الطوباوىّ أبادِير. مدينة أسْيوط هذه حسنة جدًا، وتقع نحو الغرب.

فى «شُطِب»، كنيسة الطوباوىّ [٢١٤] مِركوريوس أبو سيفين.

فى «باقور»، نحو الشرق، كنيسة الطوباوىّ كلاوديوس.

فى «قاطْية»، نحو الغرب، كنيسة السيِّدة العذراء.

فى «الزاوية»، نحو الغرب، دير القدِّيس أثناسيوس.

فى «بلاد الداناجلَة [دير الجنادلَة]»، نحو الغرب، دير على جبل، وكنيسته على اسم السيِّدة العذراء، وفى أسفلها كنيسة القدِّيس ميخائيل رئيس الملائكة.

فى «أبوتِيج»، نحو الغرب، لكون كنيسة القدِّيس مكاريوس متهدِّمة، يضربون الخيام على التلّ، ويحتفلون بشعائرهم المقدسة.

فى «بوبت» [بَويط] فى الشرق، دير القدِّيس جرجس.

في «صدْفا»، في الغرب، كنيسة الطوباويّ آبا بيشوى والقدّيس بطرُس.

[٢١٥] في «طَهْطا»، كنيسة القدّيس كِرْياكُس؛ ولكونها متهدِّمة، يصلُّون في الخيام.

الدير الأحمر للطوباويّ أبا بيشوى.

الدير الأبيض للطوباويّ أبا سنوتيوس، الذى يدعونه الأنبا شنوده، والديران في الغرب، وقد أسّستهما القدّيسة هيلانه، وهما جميلان جداً، وعلى الأخصّ الأبيض.

في «بَرْسا» [البَرْشا]، في الغرب، كنيسة السيِّدة العذراء.

في «المنشيه» [المنشاه]، في الغرب، دير الطوباويّ أبا بِساده.

في «طُوخ العسيرات»، دير السيِّدة العذراء.

في «جرْجا»، نحو الغرب، عاصمة مصر العليا، ومقرّ حاكمها، هناك دير القدّيس ميخائيل، وقد قضيت بعض الوقت في هذه المدينة.

[٢١٦] في «البَلْيَنا»، كنيسة السيِّدة العذراء.

في «بَهْجورة»، في الغرب، دير القدّيس بِضابا الأسقف.

في «نَقادَة»، في الغرب، دير السيِّدة العذراء.

في «وادى نَقادَة»، دير الصليب المقدّس.

في «قُوص»، كنيسة الطوباويّ تادرُس.

في مدينة «إسْنا»، التى تسمّيها العامّة أسْوان، والتى تقع تحت مدار السرطان، مكان القدّيسيين الشهداء، وكانوا يحكون لى أنّ هناك تسعين قصبة مِن المدينة ملطخة كلّها بدم الشهداء.

بعد إسْنا دير آبا هَرْمينا [الأنبا هدرا]، فى الشرق.

على جبل «أخْميم» فى الشرق دير آبا پاخوميوس.

فى «أخْميم» دير الطوباوىّ [٢١٧] مِركوريوس أبى سيفين.

ثمّ هناك دير القدّيس أنطونيوس الكبير.

على جبل «القُلْزُم» بالقرب مِن البحر الأحمر، نحو الشرق، كان هناك دير القديس بولُس [بولا]، أوّل السوّاح، ولكنّه الآن متهدِّم.

وما بعد ذلك لا كنائس ولا أديرة للمسيحيين.

الفصل السابع

ونذكر فيه جميع كنائس الأقباط وأديرتهم فى مصر، من القاهرة إلى الإسكندرية ، عند الخروج من الباب المسحى " باب النصر"

عند الخروج مِن هذا الباب غير بعيد مِن دير الطوباوىّ أبا رويس، مقبرة أقباط القاهرة، بالقرب منه دير آخر بحديقة كبيرة وجميلة جداً [٢١٨] وكنيستـه على اسم القدّيس ميخائيل رئيس الملائكة. هذه واحدة مِن أجمل الكنائس التى يمتلكها الأقباط حول القاهرة. هنا اشتركت أيضًا فى مأدبة يدعوها الكُتّاب القدماء «أغابِه» [محبّة]، كانت فوق سطح الكنيسة، يوم عيد القدّيس ميخائيل، بعد القدّاس، وقد حضرها أكثر مِن ٢٠٠ شخص.

خارج القاهرة، ومِن هذا الجانب ذاته، على بعد نحو أربعة أميال (وغير بعيد مِن قرية المطريّة)، هناك «مِنْية صُرُد» [مُسْطُرُد]، وهى كذلك قرية حيث نجد كنيسة على اسم السيّدة العذراء ، وهناك يحتفظون كذلك ببعض تذكارات المسيح سيّدنا وأمّه الكلّيّة القداسة، وقد مرّا بهذا المكان، وهما هاربان مِن هيرودُس. كانت الكنيسة قبل مجئ المسيح هيكلاً للأوثان، التى سقطت على الأرض لدى وصوله. رأيت فى الكنيسة نفسها [٢١٩] فى الحائط حجرَين عليهما أشكال هيروغليفيّة، وهناك كذلك صورة عجائبيّة للسيّدة العذراء، يتحدّث عنها كتابا الحبشىّ لعجائب السيّدة العذراء. يوم ١٥ نوفمبر ١٦٦٤، عيد رئيس الملائكة ميخائيل، بت ليلةً فى الكنيسة المذكورة بهدف حضور القداس، ولكن بما أنّه حدث إنزال ليلىّ فى تلك الليلة للكاهن، الذى

كان يجب أنْ يرتِّل القدّاس، لم يُقَمْ [القدّاس]، ووجب العودة إلى القاهرة فى اليوم التالى، بدون أنْ أكون قد حضرت القدّاس.

وإلى الشمال مِن ذلك، فى مصر، نحو الإسكندريّة، الكنائس التالية:

فى «سَنْدَبيس»، كنيسة القدّيس جرجس.

فى «صَهْرجْت»، كنيسة أُخرى للطوباوىّ ذاته.

فى «ميت غَمْر»، كنيسة أُخرى مماثلة.

[٢٢٠] فى «دَقادُوس»، كنيسة السيّدة العذراء.

فى «ميت دمَسْيس»، كنيسة القدّيس جرجس.

فى «الريدانية»، كنيسة السيّدة العذراء.

فى «بُساط النصارى»، كنيسة لها.

فى «بريّة جَمْيانه [دَمْيانه]»، كنيسة سيّدتنا، وفيها ذلك المولد الشهير، الذى يبدأ يوم ٢١ مايو، ويستمرّ إلى ٢٥ منه، وقد تحدّثنا عنه سابقًا.

فى مدينة «سَمَنّود»، كنيسة الطوباوىّ أبا نوب.

فى «سُنْباط»، كنيسة القدّيس يوحنّا أبوقير.

فى «زِفْتى»، كنيسة الطوباوىّ مِركوريوس أبى سيفَين.

فى «ميت بِره»، كنيسة الطوباوىّ سرابامون الشهيد.

فى «الأمنيتين» [العَجْميين]، كنيسة القدّيس جرجس.

[٢٢١] فى «البَتانون»، كنيسة الطوباوىّ سرابامون الشهيد.

فى «طُوخ النصارى»، كنيسة القدّيس جرجس.

فى «شبريه» [سبرباى]، كنيسة الملاك ميخائيل.

فى «بِرْما»، كنيسة القدّيس جرجس.

فى «أيبار» [أبْيار]، دير الطوباوىّ مينا.

فى «دَمَنْهور»، كنيسة الملاك ميخائيل.

فى «سبُك» [شبُك الأحد]، كنيسة السيّدة العذراء.

فى «بريّة الشهيد» [شهيت]، أىْ فى بريّة الشهداء القدّيسين، التى تسمّيها العامّة بريّة القدّيس مكاريوس، أربعة أديرة الواحد غير بعيد عن الآخر: الأوّل دير القدّيس مكاريوس، الثانى دير أبا بوشى [بيشوى]، الثالث دير السيّدة العذراء، الرابع دير السيّدة العذراء فى البَرْموس. يقال إنّه كان هناك فى الأزمنة [٢٢٢] الماضية ثلاثمائة دير، بقت منها هذه الأربعة فقط، فى الدير الأخير [قبل الأخير] مِن هذه، كُتُب سريانيّة كثيرة منسوخة باليد، وعصا القدّيس أفرام.

فى الإسكندريّة كنيسة القدّيس مرقُس الإنجيلىّ، أوّل كارز لمصر، وهذه هى الأخيرة مِن قائمتنا.

الفصل الثامن

في الحالة الحاضرة للمسيحية في مصر

في الحقيقة يمنح الأتراك حريّة الضمير لكلّ واحد، وهذا لا في مصر وحدها، بل وفي سائر بلادهم الأخرى، بشرط عدم المساس بديانتهم. ومع ذلك كثيراً ما يحرمون المسيحيين مِن أفضل كنائسهم وأديرتهم، كما حدث [٢٢٣] منذ بضع سنوات للدير المدعو دير الغراب في مَنْفَلوط، الذي حوّلوه إلى جامع.

بالمثل صنع كذلك الباشا السابق إبراهيم منذ ثلاث سنوات، في قرية المطريّة على بعد خمسة أميال خارج القاهرة، عندما بنى جامعًا في ذلك المكان، حيث كان للأقباط كنيسة صغيرة، وكانوا يُظْهِرون في داخلها للغرباء قطعة رخام، كان مِن عادة السيّدة العذراء الكلّيّة القداسة أنْ تنشر عليها ملابس طفلها يسوع لكي تجفّ بعد غسلها. وهناك بالقرب مِن نبع الماء، الذي أظهرته بطريقة عجائبية قوّة يسوع العظيمة، عندما وصل إلى مصر، واشتدّ عليه العطش. وتفيض مِن هذا النبع، حتّى يومنا هذا، مياه حلوة، تفوق في حلاوتها سائر المياه الأخرى، التي تفيض مِن ينابيع القاهرة، والنيل نفسه، البشوات أنفسهم، [٢٢٤] رغم بُعْد قصرهم، ورغم عداوتهم الشديدة للمسيحيين، وما يخصّهم، يستخدمون الماء المذكور على موائدهم. عند المرور على الكنيسة الصغيرة المذكورة، يحل المرء في بستان حيث شجرة التين [الجمّيز]، وبداخلها (وفقًا لتقليد قديم جداً) احتمى سيّدنا، عندما كان يطارده هيرودُس: انفتح جزع التينة مِن تلقاء ذاته، وساج عنكبوت خيوطه، وكانت هذه سميكة وقديمة المظهر،

حتّى أنّ الأعداء عندما مرّوا لم يروا ولم يبحثوا فى الداخل عن سيّدنا، إلاّ إنّه اليوم غير مسموح لأىّ فرنجىّ أن يزور الأماكن المذكورة، بسبب بنيان جامع هناك.

كذلك قام الأتراك بنزع كنيسة القدّيس أثناسيوس فى الإسكندريّة مِن أيدى المسيحيين وحوّلوها إلى جامع، ولا يسمحون لهم [للمسيحيين] بإمكانية ترميم كنائسهم المتهدّمة، والعقوبات [٢٢٥] قاسية، بل إنّ المسيحيين لا يجرؤون حتى على إزالة خيوط العنكبوت، خوفًا مِن أنْ تبدو جميلة فى عيون الأتراك فيقومون بنزعها.

فوق ذلك، يثقل الأتراك كنائسَ المسيحيين وأديرتهم بالضرائب والمغارم، مثل هذا حدث منذ أربع عشرة سنة للأحباش فى القاهرة، عندما قام الباشا ضدّهم، وهدّدهم بنزع الكنيسة إنْ لم يدفعوا مبلغًا كبيرًا مِن المال، فاضطرّوا لبيع ما فى كنيستهم، وكُتُبهم المخطوطة؛ لكى يدفعوا المبلغ المفروض. كان عدد هذه الكُتُب يصل إلى نحو الأربعين وقد أرسلها الأب الزِنار الكبوتشينى إلى مستشار فرنسا الأعظم، السيّد پيير سجْيه، وقد رأيتها فى بيته، وهذا هو السبب الذى مِن أجله لم [٢٢٦] أكد أجد أىّ كتاب حبشىّ فى القاهرة إلاّ أربعة كانت عند الأب المذكور، وقد نسختها. تثقل هذه الضرائب مع الوقت كاهل المسيحيين، حتّى أنّهم لن يستطيعوا الاحتمال بعد. وبما أنّ عدد كنائس الأقباط فى تناقص دائم أشكّ أنّه مع الوقت، سيسيطر الأتراك على الباقى. غير أنّ حالة الفرنج أفضل بكثير مِن حالة هؤلاء؛ لأنّ الأتراك لا يتركونهم يباشرون خدمة الله، بلا مضايقة فحسب، بل أكثر مِن ذلك يكنّون احترامًا كبيرًا للآباء المرسلين الكبّوتشيين، والفرنسيسكان الحفاة، الذين سواء فى القاهرة، أو فى الإسكندريّة (وبالمثل الآباء الحفاة للقدّيس فرنسيس)، لديهم كنائسهم الصغيرة فى مساكنهم ويخرجون جهرًا، مرتديًا كلٌّ منهم الملابس الخاصّة برهبنته.

[٢٢٧] تقرير الحالة الحاضرة لمصر

الجزء الرابع

فى اقتصادهم

الفصل الأول

في زراعتهم وفي مواشيهم

بعد أنْ تجفّ الحقول مِن المياه، بعد فيضان النيل مباشرةً، يبدأون في تقليحها، ويحرثونها بالثيران، ولكن بمحاريث سيئة الصنع، أو يعزقونها بالفؤوس [٢٢٨] الطويلة، حيث لا يستطيعون الوصول بالمحاريث بسبب الرطوبة.

لا تُزْرَع الحقول كلّها في الوقت نفسه، ولكن حسب ارتفاعها، وتُزْرَع أوّلاً كذلك تلك التي تجفّ أوّلاً مِن المياه.

يزرعون قبل كلّ شيء الفول، و"البرسيم" (اللذين تحدّثنا عنهما في الجزء الأوّل، في الفصل ٧). في سنة ١٦٦٤، بدأوا في قصّة [البرسيم] يوم ٢٢ نوفمبر، ثمّ يزرعون القمح وباقي البقول، وفي منتصف ديسمبر ينتهون مِن الزراعة.

يتمّ الحصاد، عامّةً، في منتصف أبريل، وينتهي في منتصف مايو. في السنة المذكورة، يوم ١٢ أبريل، كان يُؤكَل في القاهرة خبزُ القمح الجديد. لا ينشرون القمح، ولكن يقلعونه، لا يصنعون منه حِزَمًا كبيرة بل حِزَمًا صغيرة. تتمّ الدراسة في الحقل بالثيران، [٢٢٩] التي يربطونها بعربة، لها أربع أو ستّ عجلات مِن صفائح الحديد [نورج أو درّاسة]، ويجلس عليها شخص، ويقودها في دائرة، تقطع العجلات القشّ قطعًا صغيرة، وبها يغذّون المواشي في الشتاء. يذرّون القمح المذكور في الحقل كذلك بواسطة الريح، ثمّ يكوّمونه معًا، ويتركونه هناك إلى أنْ يبيعوه، أو يضعوه كذلك في الأهراء؛ لكي يكون الحقل في نهاية يوليو خاليًا تمامًا، بسبب فيضان النيل.

يروون الحقول والبساتين والحدائق بمياه الآبار المبنيّة [بآلة] يدعونها «ساقية» (وقد أعدَّ الرومان القدماء القسمَ الأكبر منها)، ونجدها بكثرة فى سائر الحقول. ترفع الثيران المياه عن طريق عجلات معلَّقة بها كثير مِن الأوانى [القواديس] المربوطة بحبل، ثمّ تجرى المياه [٢٣٠] فى قنوات صغيرة هنا وهناك فى الحقل، وقد رأيت الطريقة نفسها فى فخامة دولة دوقيّة تُسْكانا العظمى، غير أنّ الطريقة ليست دقيقة كما فى مصر.

بخصوص المواشى، هناك فى تلك البلاد عدد كبير جداً منها، وعلى الأخصّ الجاموس، والبقر، وهى رخيصة الثمن، يمكن شراء جاموسة مِن أفضل الأنواع باثنتى عشرة قطعة مِن الثمانية [ريالات]. ومِن عادتها فى الصيف أنْ تنزل قطعانًا إلى النيل، للتمتُّع بالرطوبة.

لقد أعجبتنى جدًا طريقة عومها، عندما يقودها غلام بعصا فى يده، وهو راكب على الأولى، وعندما لا تتبعه الأواخر، يعود إلى الخلف، وهو يسبح فى النيل، ويحثُّها بالعصا، كان أمر غريب أنْ ترى أكثر مِن مائة جاموسة معًا وهى تعوم، والغلام آنًا ينزل، وآنًا يصعد على الأولى بمهارة شديدة. [٢٣١] هناك بخلاف هذه، ثيران عديدة، ونعاج، وماعز، وبهائم أُخرى، يرسلونها فى وقت الصيف؛ لترعى "البرسيم"، لأنّه ليس هناك فى مصر حشائش طبيعية، ولا مروج؛ لأنّ [الأرض] كلّها تُزْرَع. أمّا فى الشتاء، فيغذّونها بفول مجروش، وتبن لفرش أرضيّة الخيل، بما أنّه (كما قلنا) ليس هناك قش فى مصر، يجمعون روث الخيل نفسه، ويجعلونه يجفّ فى الشمس، ويطحنونه كتراب، ويستخدمونه للغرض ذاته.

لديهم عادة غريبة فى ربط الخيل فى الإصْطبل، يربطونها بتسعة حبال، أىْ ثلاثة فى الرأس، تُسْتَخدم كرَسَن، مِن [الحبال] الثلاثة، اثنان يُرْبَطان فى المنود، وواحد فى الجرّافة، وتُسْتَخدم لرفع رأس الحصان إلى أعلى، وستّة [حبال] فى القوائم الأربعة، أى الرجلان الأماميان [٢٣٢] مِن القسم الخارجىّ، والرجلان الخلفيان فى الخلف،

ويثبّتون الحبال فى مسامير كبيرة مغروسة فى الأرض بنسب متساوية، ويربطون الرجل الأمامية مع الرجل الخلفية، وهكذا لا يستطيع الحصان التحرُّك إطلاقًا.

يربّون عددًا كبيرًا مِن الحمام ولاسيّما فى القرى، ويمكن أنْ نتحدّث كذلك عن طريقتهم فى تربية الحمام، لديهم كذلك نحل كثير، والمناحل مصنوعة مِن الفخّار، على شكل قصبة أرْغُن كبيرة، طولها خمسة أشبار، ويرصّونها على الحوائط، ولم أفهم فى البداية لماذا تُسْتَخْدَم. أمّا طريقة تفريخ البيض فى هذا البلد فأتركه؛ لأنّ آخرين تحدّثوا عنه.

[٢٣٣] الفصل الثانى

فى طريقة عيشهم فى البيت . فى مأكلهم ومشربهم وفيما تكمن عظمة التركى، وكيف يعاملون كبار الضيوف

بخصوص طريقة مأكلهم، نعرف جيداً أنّهم يجلسون القرفصاء على الأرض. مائدتهم عادةً سماط من الجلد مدوّر ونظيف، ومخيطة حوله حلقات يمرّ فيها رباط من الجلد كذلك، للتمكُّن من تعليقه فى الهواء بعد الأكل يضعون على هذا [السماط] خبزات فى دائرة، ولا يأكلون أبداً على المائدة فجلاً ولا بصلاً.

خبزهم لذيذ جداً فى المدن، ولكن سيئ على الأرجح فى القرى، بسبب عدم توفُّر أفران فى كلّ مكان؛ ولذا أحياناً [٢٣٤] يلزم على المسافرين أكل «الفطير»، وهو خبز مطبوخ تحت الرماد.

يشبه حجم الخبزة تلك التى يسمّونها فى روما العشر، ولكنّها لا تتجاوز ارتفاع الإصبع، وهم يدعون هذه الخبزة «رغيف». لقد سمعت أنّهم يضعون بعض النطرون فى العجين، فيجعل الخبز ينتفخ ويتلوّن، ولكن إنْ لم يؤكل سريعاً، أو بعد ساعتين، أو ثلاث ساعات لا يكون بَعْد شهيّاً، وإذا بقى لليوم التالى يؤكل بصعوبة؛ لأنّه يغدو كالعجين القاسى.

لا يستخدمون السكاكين، ولا الشُوَك، ولا الملاعق، ولا الأطباق، إلاّ تلك التى يحملون فيها الطعام على المائدة. عندما كنت أنا فى [دير] المُحَرّق دعوت، فى بعض المرّات الرهبان؛ لكى يتناولوا الغداء معى، وعندما رأونى آكل بملعقة، [٢٣٥] وكانت

كذلك مِن الخشب، تعجّبوا، وقال الواحد للآخر: «أبونا نضيف»، أى انظروا كيف أنّ أبانا نظيف! غير أنّهم لا يحتاجون لهذه الأدوات؛ لأنّ اللحمة [التى يأكلونها] تكون مقطّعة قطعًا صغيرة، يتناولونها بالأصابع. عندما يأكلون البقول يضعون فيها كمّيّة كبيرة مِن الخبز الذى يختلط بالطعام ويدعونه «طبيخ».

طريقة الأكل هذه شائعة عند الجميع، سواء الخاصّة، أو العامّة، باستثناء الفرنج الذين يتبعون طريقة بلادنا.

لديهم اعتبار كبير [لمشروب] العَرَقى، لدرجة أنّهم يشربون دائمًا كأسًا منه بين الوجبات. وبعد المائدة يدخّنون التبغ ويتلذّذون بخروج الدخان مِن الأنف.

يأكلون [يمصّون] كمّيّة كبيرة مِن قصب السكر، [٢٣٦] فيقطّعونه قطعًا، وبعد غسله، يضعونه أوّلاً فى ماء الورد؛ لتحسين طعمه. فى الصباح الباكر يرتّبون القهوة مع بعض الخبز المحمّص [القرقوش أو البقسماط]، أو الكعك المصنوع بـ«حب الصودا»، وهو بذر شبيه بالكمّون، أو [يضعون] كذلك البلح المجفّف، فضلاً عن غليون مِن التبغ. بعد الغداء، مِن عادتهم دائمًا، النوم، سواء الأسياد أو الخدم، وهكذا يتغلّبون على الحرّ الشديد.

شرابهم ماء النيل القراح، الذى تحدّثنا عنه فى الجزء الأوّل. أمّا الخمر، فرغم توفّرها فى المدن الكبيرة، فهى نادرة جدًّا فى مصر العليا، وإنْ توفّرت فهى سيئة الطعم، وتُصنَع مِن عنب البلد، الذى لا نجده بكثرة. العَرَقى كذلك، فى تلك النواحى، خفيف جدًا، ولا يختلف كثيرًا عن الماء.

[٢٣٧] ينتشر بينهم كثيرًا مشروب يسمى "بوظة"، وهو مبعث لذّة العرب، وهو يشبه كثيرًا المشروب المسمى "سِرْڤوسا" فى ألمانيا، تُصنَع مِن هذا [المشروب] كمّيّة كبيرة فى أحياء القاهرة، وفى مصر العليا، وهو مِن الشعير غير المخمّر، أو مِن زهرة الدينار، وقد جلبت معى طريقة تحضيرها.

يتناولون كذلك مشروبًا آخر اسمه "بَلْسو" وهو يقابل "الميدون"، ويتكوَّن من عسل وماء، ولكن هذا يصنعه الأرمن فقط فى القاهرة، ورغم أنَّه مُسْكِر، وله تأثير كالخمر، غير أنَّه مسموح بشربه من الأتراك، وتشربه النساء أيضًا.

يحضّر العرب ماءً عذبًا يسمّونه «ماء العرقسوس»، وهو ملوَّن وينعش كثيرًا، ويبيعونه فى الشوارع، مقدِّمين عدّة [٢٣٨] أقداح بدنانير قليلة. يحفظون اللبن فى قِرَب، وكذلك الزبدة، كما رأيت عدّة مرّات فى مصر العليا.

فى الصيف لا تساوى الزبدة شيئًا، لأنّها تفسد من جرّاء الحرّ الشديد، ولكن من نوفمبر تكون جيِّدةً، غير أنّ الرجال الذين يصنعونها قذرون جدًّا. جبنهم الذى يدعونه «جبن حلوم» دائمًا طرى، وأبيض، ومملَّح كثيرًا، وهو يشبه "المُرْتَديلاّ" فى بولونيا. يحفظونه فى سائل مملّح فى جرار، يحكمون إغلاقها بالطين، وهكذا يبقى طول العام. يصنعون كذلك نوعًا آخر أبيض، وطريًا، لكن غير مملَّح كثيرًا، ويدعونه «جبن أخضر»، وهو على شكل قِطَع، وقد تحدّثنا سابقًا عن أنواع الجبن الأُخرى، التى تُسْتَورد من الخارج.

[٢٣٩] تكمن عظمة التركى فى الأشياء التالية: أوّلاً، أنْ يكون له قصر منيف، جميل المنظر، ومريح، ويقع فى شارع مفتوح، ولكثير من هذه القصور فناء يسع خمسمائة أو ألف رجل على حصان. الثانى، أنْ يكون له عدد كبير من الخدم والحشم الحسنى الثياب، وأنْ يخدموه عندما يخرج، أو عندما يكون فى البيت أيضًا، ويقبّلون يده صباح مساء. الثالث، أن يكون مدجّجًا بالأسلحة ذات النصل الفضىّ، وأنْ تكون مزيَّنة بالأحجار الثمينة والجواهر، وكثير منهم لديه غرف مكتظَّة بها. الرابع، أنْ يكون لديه خيل للركوب، مطهَّمة بالسُرُج الثمينة، والاهتمام بها كبير فى القاهرة، ويجرى خلفه كثير من العرب، وهم يحملون على ظهرهم العصى الطويلة، عندما يخرج راكبًا حصانه. الخامس، أنْ يكون بيته مزوّدًا بكل نوع من المتاع، وأنْ تكون [٢٤٠] أرضيّة حجرة الاستقبال [وباقى] الحجرات مفروشة بالطنافس الجميلة والثمينة، وبالوسائد. السادس، أنْ يُعامَل كشخص عظيم، وأنْ يكون حسن الثياب، وأنْ تكون تحت تصرُّفه

كمّيّة كبيرة من التبغ والقهوة. السابع، تكمن عظمة التركيّ كذلك فى ارتداء الفراء الثمين والقماش الناعم ذى الألوان المختارة، وأنْ يرتدى تحت هذه قميصاً من الحرير الناعم المخطط، [ويرتدون] على الرأس «قووقًا» جميلاً (أىْ قلنسوة) من القطيفة الحمراء، ويحيط بها شريط أبيض، يصل ثمنه أحياناً إلى ثلاث عشرة قطعة من الثمانية [ريالات]. ينظرون كذلك باعتبار كبير إلى اللحية المهندمة، ذات المهابة، عندما يركبون الخيل يسعدون كثيراً، وهم على الخيل، عندما يقف المرء على رجلَيه أمامهم، ويقول ويده اليمنى على صدره: «السلام عليكم»، فيجيبون عادةً: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

[٢٤١] عندما يريد شخص تركىّ إكرام ضيف [يقوم بما يلى]: الأوّل، يقوده إلى حجرة فسيحة حسنة، يضع على حِجْره منشفةً من حرير مكّة، ويقدِّم له كوبًا من القهوة. الثانى، ينزع هذه [المنشفة]، ويقدّم له أُخرى، ويقدِّم له مشروباً. الثالث، يقدِّم له منشفةً جميلة، وماء الورد؛ لغسل اليدَين ثمّ يرشّ لحيته ووجهه بالماء المعطَّر. الرابع، يضع على رأسه وعلى جسمه ثوباً آخر جميلاً، ويبخِّره بأعواد البخور. ويستخدمون فى هذه المناسبات أوانى دقيقة الصنع من "البُرْسلّين"، أو من الفضّة المذهَّبة.

[٢٤٢] الفصل الثالث

فى بيوتهم وطريقة بنائها

حتّى الطابق الثانى، مِن عادتهم بناء بيوتهم بطريقة متعاكسة، ويفتحون فيها بوابةً واسعة ومرتفعة؛ لدخول الجِمال المحمَّلة. أمّا الأدوار الأعلى، فيصنعونها من الخشب والطوب اللَّبِن، إلى ارتفاع دورَين أو ثلاثة أدوار. ويبلِّطون السطح؛ للتنزُّه عليه، وللتنعُّم بالهواء فى المساء. وهناك عادةً إيوان بمشربيّات مِن كلّ ناحية؛ لمنع رؤية مَنْ فى الداخل.

يكون الدهليز المؤدّى إلى الفناء عادةً ضيِّقًا، وفى نهايته يصل المرء إلى سلَّم كبير، يؤدّى إلى الحجرة المبلَّطة بقطع الرخام الصغيرة ذات الألوان المتنوعة، أو [٢٤٣] بحجر مماثل. النقش على الأعتاب عادةً مذَّهب. وفى وسط السقف، أو فى عقد هذه الحجرة، فتحة مقدار قصبة على الأقلّ لكلّ جانب، تُستَخْدَم كنافذة لدخول الضوء، يكتبون حول هذه الفتحة بخطٍّ كبير آياتٍ مختلفة مِن القرآن، وتُقْفَل [الفتحة] ليلاً بستارة، ويُرْسَم على الأبواب والأسقف أشكال أزهار ملوَّنة، ويُفْرَش بلاط هذه عادةً بطنفسة جميلة، كما قلنا فى السابق.

قد لا يصدِّق البعض أنّ بيوت القاهرة حسنة النظام ومزيَّنة ببلاط وأسقف، وأقبية، كما قلنا، بينما قد يبدو أنّ مثل هذه المبانى لم يسكنها إلاّ النبلاء والعظماء، لا الأشخاص العاديون والعامّة، ولكن يجب [٢٤٤] أنْ تعرف أنّه فى الشوارع الرئيسيّة حيث ترتفع المبانى التى وصفناها، يقوم ببنائها جنود، وتجّار أثرياء، ونجد منها عشرين بيتًا، وثلاثين، وأكثر مِن ذلك، ويبنى البعضُ شوارعَ بأسرها فتكون كلّها مبنيّة

بالطريقة نفسها وبالارتفاع نفسه، وتعود ملكيّتها إلى شخص واحد، ثمّ تُؤَجّر، ويسكنها أشخاص من كلّ نوع، وقد نجد في البيت الواحد عدّة أُسَر.

يستخدمون النوافذ الزجاجية قليلاً، ولكن يستخدمون المشربيّات وهي من الخشب، وتُرْفَع وتُنْزَل؛ لفتحها وقفلها.

يخلطون الطين بنوع من الرماد المصنوع من المادّة، وبالطريقة التالية: أيْ من الروث الذي يجمعه الأولاد في الطرقات ومن التبن وتعالجها النساء على شكل دوائر، [٢٤٥] يلصقونها على الحوائط، لكي تجفّ تحت الشمس، ويستخدمون هذا الخليط عادةً للنار. أمّا مَن لا يستطيع الحصول على هذا الرماد، فيستخدم نوعًا آخر مكوّنًا من القانورات المكوّمة لهذا الهدف في المدينة، وتُتْرَك لكي تجفّ، فتُسْتَخْدَم للنار في حمّاماتهم. يجعل هذا الرماد الطين أسود بلون الأرض، ولهذا السبب، تكون الأسوار أيضًا المبنيّة به سوداء وتبدو كلّها كأنّها بلون الأرض.

أمّا بخصوص طريقة البناء الاعتياديّة في القرى، فهي التالية:

من النادر أنْ يبنوا بطريقة متعاكسة، أو بالقرميد، كما يصنعون عامّةً في القاهرة، ولكن يستخدمون، بدلاً من ذلك، الطوب اللَبِن المجفَّف في الشمس، سواء للسطح، أو للسلالم، والأرضيّة. وبالتالي تُسْتَهْلَك السلالم سريعًا، [٢٤٦] ويكون هناك خطر الوقوع، كما حدث لي في دير المُحَرَّق في مصر العليا. وهناك كثيرون يصنعون [بيوتهم] تحت السماء، في مكان مسوّر بالطين ومغطّى بجريد النخيل فقط. تقيم تحت هذا [المبنى] العائلة بأسرها: الزوج، والزوجة، والأبناء، والحمار بمذوده، والدجاج، والغنم، وكلّ ما يملكون. وهناك أيضًا عدّة قرى ببيوت مستديرة من الطين، مصنوعة أحيانًا على شكل الفرن، حيث لا يدخل أيْ ضوء إلاّ من الباب.

الفصل الرابع

فى ثيابهم ، والعلامات التى يمكن بها تمييز أمة عن أمة ، وفى زينتهم ، وما أشبه ذلك

بوسع الأغنياء أنْ يرتدوا ما يشاءون، باستثناء [٢٤٧] اللون؛ حيث إنّه غير مسموح، لا للمسيحيين ولا لليهود اللون الأخضر، ولا الشريط الأخضر، أو أىّ شريط مهما صغر، أو أىّ قطعة مماثلة، وإلاّ فالعقوبة قاسية؛ لكون هذا اللون هو اللون الخاصّ بالأتراك [المسلمين]. ويُمْنَع المسيحيون كذلك من ارتداء "الاسقرلاط" [اللون القرمزىّ]، إلاّ القناصل، الذين يرتدون وحدهم دائمًا ملابسَ بهذا اللون.

لمعرفة كلّ واحد فى هذا الجمع مِن الأمم، مِن أىّ بلد، وحالته، وديانته، ثمّة عادة أنْ يرتدى كلّ واحد علامتَه: فمثلاً المنحدرون مِن سلالة النبىّ محمَّد، يرتدون شريطًا أخضر حول العِمَّة، والنساء المنحدرات مِن السلالة نفسها، يحملن كعلامة لأصلهنّ قطعةً مِن الحرير الأخضر بدبّوس مشبوك [٢٤٨] فى القماش الذى يغطّين به الوجه. كذلك يرتدى نبلاء مكّة شريطًا أخضر، ولكن ينحدر طرفاه إلى الكليتَين، وهذا لكى يتميَّزوا عن الأوائل، وهم لا يرتدون عمّة، ولكن يغطّون رأسهم بالأخضر. أمّا البايات [أىْ الأمراء] فيُعْرَفون مِن السُرُوج [التى يستخدمونها]، فهى مُحلاّة بالفضة، وسلاسل الفضة المزدوجة، المربوطة فى جبهة الحصان. يُعْرَف أهل القسطنطينيّة من طريقة لفّ شريطهم ومِن ذقنهم الحليق، على غرار البولَنْدنيين. يتميز المغاربة (أىْ أتراك تونس والجزائر) عن المصريين، بملامح وجههم المختلفة، وبطريقة لبسهم، وعلى الأخصّ "البُرْنُس" (وهو نوع مِن الرداء، على شكل "بِقْياله" [غفّارة] بـ"كَبُّتشو" كبير

[غطاء للرأس]، يغطّون به العمّة وقت المطر)، ومن طريقتهم الخاصّة [٢٤٩] فى لفّ العمّة. التجّار العرب والأتراك [يتميزون] من لفّة عمّتهم. السپاهيّة من سراويلهم الكبيرة من القماش الأحمر. الإنكشارية من القلادة الصغيرة الدمشقيّة البنفسجيّة، التى يحملونها. العزبان من الرباط الأزرق. الأولياء (أىْ رجال الدين الأتراك) من ردائهم ذى الأهداب المربّعة المتغيِّرة اللون، وكذلك من "شاشهم" (أىْ شريط حول القبَّعة) المتناهى الطول، وهو من القماش نفسه، وقد وُزن مرةً أحدها فوُجد أنّه كان يزن ٢٥ رطلاً. يُعْرَف الدراويش (أىْ رهبان الأتراك) من قبّعات اللباد البيضاء، ومن الحربة، أو الحسام الخشبيّ، الذى يحملونه فى علاّقة على أوساطهم. الدواهينية (أىْ الحجاج الأتراك) من ردائهم الخشن والمرقَّع، أو من الفراء الذى يرتدونه، ومن ريش الديك، [٢٥٠] الذى يحملونه على القلنسوة. يُعْرَف «الفلاح» و«السائس» من البردة، ومن العصا الكبيرة التى يحملونها على الظهر، ومن سير الجلد الأحمر، وعرضه شبر، وفيه يغرسون "خنجرهم" (وهو سكّين عريض ومُعْوَجّ)، ومن "المركوب" (أىْ حذاء من الجلد الأحمر). يُعْرَف "القهوجىّ" من الشريط الأسود حول قبّعته.

يُعْرَف الأقباط من "شدّهم" (أىْ شريط حول القلنسوة مخطّط بالأبيض والأزرق)، وهو يسمّى هكذا لتمييزه عن [الشريط] الأبيض، الذى يحمله الأتراك، ويسمّى "شاش". اليونانيون والأرمن من الشريط حول القبَّعة، ولونه كلّه أزرق. بطريرك الأقباط من الشريط الطويل والملوَّن، الذى يحمله على العمّة، [٢٥١] وينزل على الجهتين، ويضمّ حقوَيه. الكاهن القبطىّ، من ثوبه الأسود والقذر، ومن وجهه الكالح والذابل، ومن مسلكه الذليل. يُعْرَف الراهب القبطيّ من "الكبوتشو" [غطاء الرأس] الأسود تحت القبَّعة. الكاهن اليونانيّ من القلنسوة السوداء من اللباد، والمسطَّحة من أعلى، وهى تنزل على أُذنَيه؛ ومن شعره الطويل. قنصل الفرنج، من لباسه الأحمر كلّه من الاسقرلاط. فضلاً عن ذلك يُعْرَف الفرنج سريعًا من وجوهم، أيًا كان لبسهم، أو ما يفرضه عليهم التركىّ. يُعْرَف يهود الشرق من رأسهم الحليق، ومن "الطرطور" (وهو نوع من القبَّعة الكبيرة العالية، ومستدير، مصنوع من قماش بنفسجىّ، ويحمله عادةً

هم فقط). اليهود الفرنج مِن شعرهم الطويل، ومِن القبَّعة، ومِن لبس بعض الألوان غير الشائعة عند باقى الناس.

[٢٥٢] لا تتميَّز ملابس النساء، باستثناء اليهوديات الشرقيات، اللاتى يحملن على الرأس "فِنْجانًا"، وهو نوع مِن غطاء الرأس المستدير، والمصنوع مِن "الكرتون" المقوّى، ومغطًى بالقطيفة السوداء، وطوله نحو ذراع، وعرضه على مقدار الرأس، وينزل على الظهر.

وللأقباط كذلك عادة أُخرى؛ لكى يتميّزوا بوضوح عن الأتراك واليهود؛ وهو أنّهم يحملون جميعًا علامة الصليب المطبوع على اليد، ويتمّ هذا بطريقة خاصّة بهم، والجميع، وعلى الأخصّ النساء، مِن عادتهم رسم كتابات وصور تبقى مدى الحياة؛ لكى تبدوا حسنات المظهر، ويثقبن الجلد بالإبَر أو الدبابيس، ويضعن "الكحل" أو السناج؛ لكى تبقى العلامة. فضلاً عن ذلك تضيف نساء مصر هذه [الزينة] [٢٥٣] وهو تكحيل العينين بالكحل الأسود، وأظافر اليدَين والرجلَين بالأصفر، بمسحوق أوراق « الحِنَّة »، وتسمّى باللاتينية "سيبرُس". وفى مناسبات الحزن يلطِّخون اليدَين بالأسود، ولكن فى وقت الفرح يلوّنونهما بخطوط سوداء متداخلة على شكل مشربيّة.

فضلاً عن ذلك رداء الفلاحين حقير جداً. يتكوّن رداء العمال، أو الخدام مِن الجنسين مِن قميص طويل مِن القماش الأزرق، بأكمام طويلة، وعريضة، ويصل عرض [طول] رداء النساء مِن الظهر إلى الأرض. ومِن لديه الإمكانيات يزيِّن هذا القميص مِن الأمام ومِن الخلف بصور جميلة ملوَّنة منسوجة بالأبرة والخيط حسب خياله.

يرتدى الرجال كذلك نوعًا مِن الرداء، يسمّى بالعربية «بُرْدَة»، [٢٥٤] ويستعملونه على الأخصّ فى السفر، وهو يُصْنَع بالطريقة التالية. يتكوَّن مِن قطعتين مِن نوع مِن القماش، لونه يشبه كثيراً رداء الآباء الكبوتشيين، وهو قوى يقاوم الماء، وطول كلّ قطعة عادةً أربعة عشر ذراعًا، وعرضها ثلاثة أشبار، وفى نهايتها تتعلَّق أهداب مِن

الصوف واللون نفسه، طولها ذراع ومعطوفة على ذاتها، ومثبَّته فى النهايات بعقد. ويخيطون هذين القماشين معًا بالطول، بدون أيّة صناعة أُخرى. تسمح هذه الخياطة بتطبيقها وبلفّها على الوسط، ولكنّها تعوق حركة الذراعين. باستثناء هذا العيب وجدت هذا النوع مِن الثياب مريحًا جدًّا؛ ففضلاً عن ثمنه الزهيد، أثناء النهار عندما [٢٥٥] كنت أمشى، وكنت أشعر بالبرد، كنت ألفّه حول وسطى، وهكذا كنت أستعمله كرداء، وأثناء الأكل فى الخلاء كنت أستعمله كخيمة، وعندما لم أكن أحتاج إليه لهذه الأغراض، كنت أطبقه وأستعمله كبردعة على حمارى، ثمّ فى الليل كنت أتغطّى به، وبهذه الطريقة كنت أستعمله فى سائر الاحتياجات. وقد وجدت كذلك أنّه فى مركبنا، عندما ذهبت إلى مصر العليا ، كان العرب يستعملونه كشراع، ولكن للحاجة، وليس لسبب آخر، وهناك القليلون الذين فى السفر لا يستعملون هذا النوع مِن الثياب.

[٢٥٦] تقرير الحالة الحاضرة لمصر

الجزء الخامس

فى بنايات مصر الفخمة

الفصل الأول

في الأهرامات

بين جميع بنايات مصر وأشهرها، والتى لم تمسّها عوائد الزمن الأهرامات، وهى بحقّ أهمّها، وأعجبها، ذات العرض [٢٥٧] والطول المتناهيين، والبنية العجيبة، حتّى أنّ كلّ مَن يتأمّلها يبقى مذهولاً.

يوم ٣ أكتوبر سنة ١٦٦٤، ذهبت لمشاهدتها بصحبة الكثيرين، والنيل فى قمّة فيضانه، والحقول مغمورة؛ ولذا لزم استخدام مركب.

خرجنا، فى الصباح الباكر مِن بيت القنصل الهولندىّ (حيث كنت أسكن وقتئذ)، من القناة المسمّاة "الخليج". ولمّا وصلنا إلى القرية الأولى خارج القاهرة، أركبنا معنا أُناسًا؛ لكى يقودونا فى مقاطع السدود، وهكذا عبرنا بالمركب على الحقول، إلى المنطقة ذات الأحجار الجيريّة، التى نجدها تحت الجبال المبنيّة عليها الأهرامات، وهى مِن بقايا خرائب منف القديمة جداً. مِن هنا كان يجب علينا أنْ نصعد جبلاً كبيرًا [٢٥٨] رمليًا، قبل أنْ نصل إلى الهرم الأوّل الأقرب إلى الآتى مِن القاهرة. إنّه أُعجوبة كبيرة، مجرّد رؤيته تذهل المرء، ويصعب أنْ تفهم كيف استطاعوا رفع حجارة متناهية الثقل؛ لأنّ بعض هذا الرخام فى الصفوف الأُولى يتجاوز ارتفاعه أربعة أشبار، ويصل طوله إلى ثلاثين، بحجمه المتناسب.

[الأهرامات] الكبرى، التى نجدها فى تلك النواحى ثلاثة، الواحد قريب مِن الآخر، وأكبرها فقط فارغ مِن الداخل، وهو مِن الخارج على هيئة سلالم، تسمح بالصعود إلى

قمّته، غيرأنّه مِن الناحية الشماليّة ثمّة أربعة صفوف بالتقريب مكسورة فى الوسط، ممّا يجعل الصعود صعبًا، أمّا فى باقى الأجزاء فتبدو كأنّها حديثة الصنع.

بخصوص ارتفاعه وعدد [٢٥٩] السلالم، أعتمدُ على غيرى ممّن قاسوها وأحصوها؛ يؤكّد سانْدِس الإنجليزىّ، فى رحلته، أنّها ٢٥٥ سلّمة. القنصل الهولندىّ المذكور، عندما قاس الارتفاع وجده ٦٦٢ قدمًا. ولكن هذا يبدو لى قليلاً؛ لأنّنا لو أردنا حساب الدرجات فقط، على أساس ثلاثة أقدام للواحدة، وهذا أقلّ ما يمكن، يسوغ القول إنّ ارتفاعها ٧٦٥ قدمًا، بفارق ١٠٣.

عرضه طبقًا لقياس القنصل نفسه ٧٢٠ قدمًا، وبالتالى حجمه الكلّىّ ٢٨٨٠ قدمًا مربّعًا. يرى سانْدِس المذكور أنّ هذا الهرم المذكور يوازى ثمانية حقول، وقمّته غير مدبّبة، وعرضه مِن كلّ ناحية ١٩ قدمًا، حتّى أنّها تسع ستّين شخصًا. فى الناحية الشماليّة للهرم نفسه بوّابة كبيرة [٢٦٠] وَهْميّة، فى داخلها فتحة صغيرة على مستوى الأرض لدخول الهرم. فوق هذه الفتحة الصغيرة مكان يبدو أنّه أُعِدّ للراحة فيه. وبالتالى فإنّ الغرباء الذين يأتون لمشاهدة الأهرامات يتوقّفون هناك عادةً؛ لتناول القليل مِن الطعام، قبل الدخول. ثمّ مَن يريد الدخول عليه أنْ يتزوّد بدستة مِن الشموع، وبقدّاحة صالحة فى حالة انطفاء الأضواء. وفى العادة يجب كذلك إرسال بعض العرب إلى الأمام بمعاول ومجارف لإفساح الطريق؛ لأنّه فى الداخل كمّيّة كبيرة مِن الرمال. لا يجب الوقوع فى الخطأ بنزع الثياب والحذاء، للتحرُّك بسهولة فى الدخول كما فعلنا نحن، ومِن الأفضل أنْ يحتفظ كلّ واحد بضوئه فى يده.

المدخل على شكل منحدر مِن حجارة السلم ذاته، بعرض [٢٦١] يسمح بتقابل شخصين معًا، يمكن أنْ يتبادلا المكان. الارتفاع نحو أربعة أقدام، وبالتالى لا يمكن الوقوف باعتدال، ورغم أنّه ليس هناك سلالم، نجد بدلاً منها بعض الفتحات لوضع الرجل، تساعد على عدم السقوط. الجزء السادس مِن الهرم طويل، فهو مائة قدم، مِن وجهة نظرى أو مِن وجهة نظر سانْدِس المماثلة.

فى نهاية هذا الممرّ، يبدأ المرء فى مواجهة الصعوبة الحقيقة؛ لأنّه يصل إلى فتحة ضيِّقة جداً مسدودة بالتراب، الذى يجب رفعه بالمجارف، ثمّ الحبو على اليدين والركبتين بمشقّة كبيرة ومخاطرة. بعد عبور هذه الفتحة الصغيرة يصل المرء مِن جديد إلى مكان فسيح، وبالتشمير عن الساعدين يجب التشبث [بالأرض] لبضع خطوات، هنا يصل المرء إلى ممرّ مرتفع جداً وواسع جداً [٢٦٢] على شكل قبو مِن الحجارة نفسها المبنية بها الأهرامات مِن الخارج، وهى مرصوصة معًا، حتّى أنّ الطريق يبدو مكونًا لا مِن حجارة عديدة بل مِن حجر واحد مصمت، يمتدّ إلى أعلى، ممّا يُتْعِب الصاعد، ولكن هناك ظلمة تبعث على الخوف، ورائحة كريهة فى الهواء الساكن، الكمّ الكبير مِن فضلات الوطاويط (وهى كثيرة هناك)، يسبِّب غثيانًا للمرء. بعد نهاية هذا الممرّ، يدخل المرء فى ممرّ آخر أكثر انخفاضًا، ولكن مستقيم، يجبر على المشى بانحناء، ويؤدى إلى حجرة ذات ارتفاع متناهٍ. يقول سانْدِس إنّ عرضها ٢٠ قدمًا وطولها ٤٠، وتضمّ الأرضيّة والسقف ثمانية أحجار لكلّ منهما. فى الداخل وفى مواجهة المدخل حجر منحوت على شكل خاتم، طوله [٢٦٣] مقدار رجل وارتفاعه ثلاثة أقدام، وربّما أكثر، عندما يقرعه المرء، يصدر صوتًا عذبًا كصوت الجرس. يعتقد العرب أنّ الحجر المذكور كان قبر الفرعون، وهم يدعونه هكذا. داخل الحجرة، وفى الحائط، فتحة صغيرة غير أنّه لا يُعْرَف سببها، وهى ضيِّقة لا تسمح بالدخول منها.

ولا أُناقض ما يكتبه غيرى عن حفرة عميقة تصل إلى ٨٦ ذراعًا، وأنّ النيل عندما يغمر البلد، كان يملؤها بالماء عن طريق قنوات جوفيّة، وأنّ فى وسط هذه تلاً، وفوقه جثمان خوفو (بانى الهرم)، فى قبر يمكن الاعتقاد بأنّه كانت هناك حجرات وفتحات مِن هذا النوع أكثر مما ذكرناه، غير أنّ الحطام الكثير لا يسمح برؤية جميع الخبايا.

[٢٦٤] بالإضافة إلى هذه [الأهرامات]، هناك أُخرى صغيرة، البعض منها سليم، والبعض الآخر فى حالة سيِّئة، والبعض مدمَّر لدرجة تغنى عن ذِكْره.

فى الجـانب الجنوبىّ لِمَن يأتى مِن القـاهرة، فى ذلك الجـبل الذى تقـوم عليـه الأهرامات، نجد مـغاور كثيرة مـحفورة فى صف، على شكل حاوانيت عديدة وحجرات. نجد فوق مدخل بعضـها كتابات هيروغليفيّة، ولكن لا يمكن معرفة سبب استـخدام المغاور المذكورة، وبالتالى نتركه لحكم كلّ واحد، أهى مقابر للمصريين، أمْ بقايا مدينة منف القديمة، أمْ مساكن الكهنة الوثنيين، الذين كانوا يجيبون مَن كان يذهب إلى هناك، لاستشارة عرّاف السْفِينْكِس [أبوالهول] القائم هناك قريبًا.

على بعد نحو ستّة أميال إيطاليّة مِن هذه الأهرامات، نحو [٢٦٥] الجنوب، خمسة أو ستّة [أهرامات] أُخرى كبيرة، لم أقترب منها. نجد هناك أيضًا مومياوات، تحدّث عنها بيتْرو دِلاّ فَلّه، وساندِس ومؤلّفون آخرون مختلفون أو عديدون. وعلى بُعْد سَفَر يومين مِن القاهرة، فى الجانب الغربىّ نفسه للنيل، هرم كبير آخر، بقمّة غير مدبَّبة، وهو آخر ما رأيته فى رحلتى مِن القاهرة إلى جِرْجا.

أمّا بخصوص الهدف الذى مِن أجله أُقيمت هذه العمارات الهائلة، ودُفِعَت تكاليف لا يمكن تصوُّرها، فتختلف الآراء. الرأى الأرجح (ويتبعه أيضًا جوڤنّى ليونه، وهو مؤلِّف شهير وآخرون)، هو أنّها كانت مقابر ملوك مصر القدماء، وقد دفعهم إلى ذلك طموحهم الجامح فى تخليد ذِكْرهم، أو ربّما لخوفهم أنْ يؤدّى غناهم، الذى لا مثيل له، إلى كسل خلفائهم، فأرادوا [٢٦٦] استخدام كنوزهم فى البناء، وفى تشغيل رعاياهم.

الفصل الثانى

فى "السِّفِينْكِس" الذى يدعوه العرب "أبوالهون"

بالقرب مِن الهرم الأوّل فى أسفل، هناك رأس امرأة برقبتها، مِن حجر واحد مصمت، ارتفاعه ٢٦ قدمًا، حسب قياس السيد يوهَنّ تيلس، القنصل الهولندىّ، يُسَمّى فى العادة "سْفِينْكِسّ"، غير أنّ العرب يدعونه « أبوالهون ». لقد كسر أنفه أحد العرب، وثمّة قصة يروونها بشعر جميل باللغة العربيّة، أضرب صفحًا عن ذِكْرها، حبًّا فى الاختصار، ولعدم تصديقى لها. أمّا إذا كانت بعض أجزاء هذا التمثال تحت الأرض، فلا أعرف ذلك.

[٢٦٧] الفصل الثالث

فى مجرى الماء الكبير فى مصر القديمة

هناك كذلك فى مصر القديمة بناء رائع، أى مجرى ماء مِن النيل إلى القلعة، مقرّ الباشا، وعن طريقه تتزوّد تلك القلعة بالماء.

مجرى الماء هذا مبنى على قناطر متعاكسة مرتفعة جداً، وبالمقارنة به تبدو مجارى مياه روما صغيرة جداً، وحسب ساندِس المؤلِّف الإنجيليزىّ عدد القناطر ثلاثمائة.

يقال على وجه العموم إنّها بُنِيت على نفقة العبرانيين، الذين فى الأزمنة الماضية حرّضوا أحد خلفاء مصر، لكى يأمر بطريرك الأقباط أنْ ينقل الجبل، الواقع خلف القلعة المذكورة، بناءً على كلمات الإنجيل: «إذا كان لكم [٢٦٨] إيمان مثل حبّة الخردل، تقولون لهذا الجبل، انقلع مِن ههنا وانغرس هناك» وإنْ لم يستطع، عليه أنْ ينكر إيمانه. وعندما، نقل [البطريرك] ذلك الجبل بالعون الإلهىّ، تعجّب الخليفة مِن هذه المعجزة الكبيرة، وفرض على اليهود الأشرار كعقاب لضلالتهم، أنْ يرفعوا وأنْ ينفقوا على هذا البناء. سواء كان اليهود هم صنعوا مجرى الماء هذا أم لا، فمِن المؤكّد أنّ الجبل المذكور يُدْعَى إلى اليوم «جبل المقطَّع»، أىْ الجبل المقطوع. وهناك مراجع عربيّة تؤكِّد معجزة نقل ذلك الجبل، على يد بطريرك الأقباط. وبين [مراجع] أُخرى نجد هذه القصّة فى تاريخ بطاركة الإسكندريّة، [التاريخ] الذى قام إبراهيم الحَقِيَلانىّ [٢٦٩] بترجمته مِن العربيّة إلى اللاتينيّة، وطُبِع فى باريس، فى المطبعة الملكيّة، سنة ١٦٥١، [ترد هذه القصّة] فى الورقة ١٣٢، الرقم ٦٢، فى سيرة البطريرك أفرام السريانىّ، مَن يرد يمكنه أنْ يقرأها.

الفصل الرابع

في بئر يوسف

في القاهرة أيضًا [بئر] عميقة جدًّا، تُدْعَى بئر يوسف، ولكوني لم أرْها، أكتفي بالإشارة إليها. الأتراك يدعونها هكذا، معتقدين أنّ الذي بناها هو يوسف ابن أبي الآباء يعقوب، رغم أنّه مِن غير المؤكَّد إنْ كان هو قد عاش في القاهرة، كما قلت في مكان آخر.

[٢٧٠] الفصل الخامس

فى جامع القاهرة الكبير المدعو " جامع الأزهر "

«جامع الأزهر» هو أكبر جامع فى القاهرة، بناه عبد أسود اسمه أزهر، له أربع بوّابات نحو جهات العالم الأربع، وفيه مقرّ المفتين الأربعة، يبدو كأنّه عالم صغير؛ لأنّنا نجد فيه كلّ نوع مِن أُمَم العالَم.

يعيش مِن دخله دائمًا ثمانى مائة شخص فى كلّ وقت، سواء فى الملبس، أو فى المأكل، وللجميع مسكنهم. غير أنّه لا يُسْمَح لأىّ مسيحىّ أنّ يدخله، بدون تصريح خاصّ مِن المفتى الأوّل، وإلاّ فالعقاب هو الموت، بل مِن الصعب [٢٧١] أنْ ينظروا إليه عند مرورهم، بدون خطر تلقّى الضربات، كما أستطيع أنا أنْ أؤكّد ذلك عن خبرة؛ لأنّى عندما مررت أمامه فى المرّة الأولى للذهاب إلى بعض شؤونى، ووقفت على بُعْد نحو ستّين قدمًا؛ لكى أتملّى فخامة البناء الخارجيّة، خرج أحد العرب مِن حانوته، وراح يضربنى، وكان بإمكانى تلقّى المزيد، إنْ لم ألذ بالفرار. غير أنّى فى المرّة الثانية عندما مررت به (لأنّى كنت فى رفقة أحد الجاحدين، وكان فى السابق راهبًا، يدعى الأب ميكيله دنْفِرسا)، كنت فى مَنْأى عن [مضايقة] الأشخاص، بسبب حمايته. ثمّة مكتبة مؤلّفات عربيّة ذائعة الصيت تبُاع، ولكن إنْ لم يكن هناك تركىّ موضع ثقة يستطيع أنْ يقوم بذلك، فمِن الصعب على الفرنج أنْ يستطيعوا الحصول عليها.

هناك كذلك جوامع أُخرى كبيرة جداً [٢٧٢] فى القاهرة، كالذى فى ميدان الروميلة، ولا أتحدّث عنه لأنّ مؤلّفين أخرين تكلّموا عنه.

الفصل السادس

فى حمّامات مصر

تُعَدّ الحمامات واحدةً مِن أجمل معالم البلد؛ لأنّ جميع الشرقيين يغتسلون مراراً، وهذه واحدة مِن عاداتهم الأكثر شيوعًا، وكذلك لأنّ هذه البنايات لافتة للنظر أكثر مِن أىّ بناء آخر.

تتكوّن مِن عدد كبير مِن الحجرات، مزوّدة بكلّ نوع مِن الراحة الضروريّة لحمّام، والواحدة أجمل، وأسخن، وأريح مِن الأخرى. الأرضيّة مكسوّة بقطع مختلفة مِن الرخام، فى أعلاها أقبية زجاج مِن مختلف [٢٧٣] الألوان، للتنعُّم بالضوء. حول الحوائط أحواض من الرخام تمتلئ عن طريق مجارٍ، إمّا بالماء الساخن أو البارد، حسب ذوق كلّ واحد. لديهم أيضًا تقاليد جميلة جداً فى الاغتسال، مِن بينها هذا: مَن يأتِ إلى الحمّام يضطجع على الأرض، فينظِّف الخدّام سائر جسمه تاركين الخلف، بسبب الحياء، لخدّام آخرين يقومون بذلك. يخدم الرجال الرجال، والنساء النساء، هؤلاء فى الصباح، وأولئك بعد الغداء، كما يُجْرى الأتراك هناك ختانهم.

الفصل السابع

في "الأُوبِليسْك"، أي مسلاّت مصر

لم أجد في مصر بأسرها، في يومنا هذا، [أيّة مسلاّت] واقفة، إلاّ [٢٧٤] مسلّتين: نجد الأولى بين قريتي «منية صُرُد» [مُسْطُرُد]، و«المطرية»؛ والثانية في الإسكندريّة، وهي تقع بالقرب من مقبرة تحت الأنقاض تغطّيها كلّها.

لم يكن في الإمكان قياس ارتفاع مسلّة «المطرية»، في ذلك الوقت، يوم كنت هناك، لأنّها كانت وسط المياه، بسبب فيضان النيل، وبالتالي لم يتسنَّ الاقتراب منها. أمّا مسلّة الإسكندريّة (فلكونها مدفونة إلى النصف)، يصعب معرفة ارتفاعها. ومع ذلك مَن يدفعه حب الاستطلاع إلى معرفة المزيد من المعلومات عنهما، فليقرأ كتاب الأب المحترم أثناسيوس كيرْشَر من جماعة يسوع، بعنوان « أوبِليسْك بَمْفيليوس»، وفيه يجد بيانًا أدقّ، ومع ذلك، من وجهة نظري، كان يُنْتَظَر المزيد من الشرح لتلك الأوصاف.

كلّ هذه المسلاّت مصنوعة من قطعة واحدة، بطريقة [٢٧٥] تمثّل بعض الأسرار. قاعدتها مربّعة، تضيق كلّما ارتفعت، إلى أنْ تصل إلى نقطة مدبّبة.

كان قدماء المصريين يدعونها أشعة الشمس، من شكلها، ولأنّها كانت مكرّسة لها، كأكبر إلهة عندهم يتعبّدون لها. غير أنّ اليونانيين وضعوا لها اسمًا آخر، دعوا الكبرى "أبولي"، أيْ «السَفّود» [سيخ حديد]، والصغرى أُوبِليسْكي، أيْ «سَفّود صغير». تُدْعى بالإيطاليّة «إبَر»؛ لأنّها تشبه الإبرة عندهم في شكلها.

مادتها الحجر الملوّن ببُقَع حمراء داكنة، مختلطة بأسود وأبيض، ويُسَمّى الجرانيت الأحمر الشرقيّ؛ لتمييزه عن الأنواع الأخرى الموجودة من الجرانيت. يُعتَقَد أنّها نُحِتَت من جبال طيبة، وإسْنا.

من نوع الحجر نفسه [٢٧٦] نجد في مصر أحجار رحى كثيرة، لطحن السكر [تزن] الواحدة ٥٠٠٠٠ رطل. رأيت إحداها في إمباب [إمبابة]، الواقعة في مواجهة بولاق، وأخرى في سنديون، ورشيد.

ولأنّ ظلّ الأجساد المنيرة المدوَّرة يكون عادةً مخروطيّ الشكل، لا مربّعًا، وبما أنّ هذه المسلاّت مرفوعة لتمثيل أشعة الشمس، فهي مربَّعة، وبالتالي قد يتعجَّب المرء بحقّ ويتساءل عن سبب صُنْع المصريين هذه المسلاّت مربّعة، لا مخروطيّة. قد يكون من الممكن، أنّهم صنعوها هكذا للأسباب التالية: أيْ، بما أنّ نيّتهم كانت تكمن في أنْ يمثّلوا بها أشعة الشمس فقط، ولرؤيتهم أنّ أشعة باقي الكواكب ذات شكل مخروطيّ، تعيّن العثور على واحدة تتطابق مع الشمس بوجه خاصّ، وأنْ تكون [٢٧٧] مختلفة عن سائر الأنوار السماويّة، ولم يكن بينها أيّ واحدة أكثر تطابقًا للشكل المربّع؛ لأنّ أشعة الشمس وحدها تتسبَّب في فصول السنة الأربعة؛ ولذا اهتدوا إلى تكوين هذه الأشعة متمثّلة في الشكل المربّع، وقد يكون هناك سبب آخر وهو، بما أنّ الشمس تقع في المدار الرابع للسماء، أو لأنّه يتّفق مع مجراها، فإنّ العالم يُنار في أربع جهات، أو لأسباب مماثلة.

على سطح هذه المسلاّت نجد محفورًا ومنحوتًا نوعًا من الكتابة [مكوّنة] لا من الحروف، بل من أشكال من كلّ نوع من الحيوانات، والديدان، والأدوات الصناعيّة، ومَن يدفعه حبّ الاستطلاع لمعرفة كيف كُتِبَت، وكيف صُوِّرَت، وماذا تعني، فليقرأ [كتاب] أديبُس للأب أثناسيوس كيرْشَر من جماعة يسوع، الذى، بنجاح لا يُصَدَّق، [٢٧٨] وبعبقريّة، وبتخصُّص عجيب عميق جداً، لم يشرح الصور المنحوتة على مسلاّت مصر فحسب، بل والأخرى أيضًا المنصوبة في روما. غير أنّ العرب الجهلة يعتقدون أنّ المصوَّر عليها هو سر صناعة الذهب، ولذا ينظرون شزرًا إلى أيّ فرنجيّ يقترب منها.

أمّا كيف استطاعوا نحت هذه الأحجار الضخمة جداً من الأرض، وحملها بعيداً، ونصبها، فهذا يبعث على كبير الإعجاب. ويعتقد الكثيرون، وعلى الأخصّ عرب مصر، أنّها أحجار مصنوعة مِن الجصّ، وأنّ سرّ [صناعتها] مفقود اليوم.

بيد أنّه إذا نُظِرَ إلى غنى ملوك مصر القدماء، الذى يفوق الوصف، والكنوز الهائلة، التى كانوا يستخرجونها مِن المناجم على حدود [٢٧٩] الحبشة [النوبة]، وإذا فكّرنا فى عدد المدن، والناس الذين كانت تعجّ بهم مصر (يمكن أنْ تقرأ حول هذا ديودوروس الصقلىّ، ويُمْبونيوس ميلاّ)، والمبانى الأُخرى الأروع مِن هذه، ممّا صنعوه، يزول سبب العجب مِن هذه، وتكون تلك الأعمال أقلّ كثيراً [مِن الذى كان]، ناهيك عما تستطيعه عبقريّة الإنسان، عندما يكون متزوِّداً بسائر متطلّبات العمل.

نجد أيضًا فى أماكن مختلفة مِن القاهرة، قطعًا مِن المسلاّت المماثلة المصوَّرة بهذه الحروف. رأيت فى مصر القديمة، فى حى القدّيس جرجس، منارةً مِن النحاس الأصفر، ارتفاعها مقدار إنسان، وكان مطبوعًا عليها هذه الكلمات: «فى وكالة بيت مراد كخيا» (حيث توقّفت لبعض الوقت)، وعندما أراد صاحب المكان ترميم مجرى ماء كان مسدوداً، استخرجوا مِن تحت [٢٨٠] الأرض حجراً مربّعًا، طوله ثلاثة أقدام بالتقريب، وكانت عليه ثلاث صور بالنقش الغائر تمثّل ثلاثة فتية، به خطوط هيروغليفيّة حوله، وبين كلّ واحد منها سطر آخر فى أسفل. وإذا أراد البعض أنْ يعرف التفسير، يمكنه قراءة كتاب المحترم الأب أثناسيوس كيرْشَر، الذى نشره عن هذه المسلّة، التى عُثِر عليها فى السنوات الماضية فى دير سَنْتا مريا فوق لا مينِرْڤا فى روما، حيث يجد الصورة ذاتها مرسومة.

الفصل الثامن

في عمود بُمْبيوس

يُدْعى هذا العمود بعمود بُمْبيوس؛ لأنّ الجميع يعتقدون أنّ يوليوس قيصر هو الذى نصبه تخليداً لذِكْرى بُمبيوس هذا، وهو خارج الإسكندريّة نحو [٢٨١] الشرق، فى الخلاء المبسوط، فوق مكان مرتفع، بقرب رأس المجارى، التى تغذّى صهاريج الإسكندريّة بالماء، بقرب بحيرة ميوتس [مريوط]. لا يبدو [العمود] شيئًا عظيمًا إلى أنْ نقترب منه، لكن متى اقتربت منه بدا لك مرتفعًا وضخمًا، ويبقى المرء منبهرًا. إنّه من حجر المسلاّت نفسه، غير أنّه أملس كالمرآة، ويبدأ فقط فى الارتفاع وقت الريح الشمالية، وارتفاعه طبقًا لقياس يوهَنّ تيلس ١٣٠ قدمًا، حسب النظام الكورنسيّ، ويمكن بذلك الحكم بسهولة على الأجزاء الأُخرى.

منذ وقت قليل بدأ العرب فى الحفر تحت القاعدة، وعندما نظرت أنا فى الحفرة المذكورة رأيت بعض الكتابات ذات الخطوط المجهولة بالنسبة إليَّ، وهناك أيضًا كتابات أُخرى فى جانب مِن القاعدة المذكورة، مِن الصعب [٢٨٢] تبيُّن حروفها.

كانت هناك، فى الماضى، فى تلك المنطقة، قصور عظيمة جداً، كما يظهر مِن الخرائب. غير أنّ تلك الضواحى، وكانت فى الماضى عظيمة، ليست اليوم إلاّ مأوى للعرب، وهم أسوأ ما يمكن أنْ نجده مِن أنواع الناس.

تزخر الإسكندريّة بآثار قديمة مماثلة، سواء فى الخارج أو فى الداخل، وهناك أيضًا كثير مِن الأعمدة المنتصبة مِن الجرانيت، وأنواع أُخرى مِن المرمر الناعم، يصل ارتفاع بعضها إلى خمسين قدمًا، وكثير منها مكسور، وكثير مدفون فى الخرائب. هنا

بقايا أحد القصور، وهناك بعض الحوانيت، وفى كلّ مكان جبال كاملة من الأطلال، حتّى أنّه أحيانًا يتعيّن المشى وقتًا طويلاً للوصول من منزل إلى آخر. إنّه فى الحقيقة منظر يبعث على الإعجاب [٢٨٣] وعلى الأسى معًا، لدى رؤية وتأمُّل مدينة [كانت فى الماضى] ذائعة الصيت وقويّة، وقد انحطّت إلى هذه الحالة المزرية، وحيث [كنّا فى الماضى] نرى الأسوار الضخمة والأبراج الكبيرة حول المدينة، ذات الأقواس الحسنة الصنع، [نراها] الآن متآكلة كخشب منخور. وإذا وضعنا فى الاعتبار كذلك مجارى المياه العديدة والصهاريج، فرغم كونها فى جزئها الأكبر متهدّمة، والمبالغ الطائلة التى أُنْفِقَت فى بنائها، لا نفهم الغنى الذى كان يمكن أنْ يحصل عليه هؤلاء الناس، الذين يحيون الآن على مجرد الذكرى. ويجب أنْ يكون فى هذا عبرة: ليست هناك أُبّهة أو عنجهيّة فى العالم، مهما كبرت، تمكث ثابتة أو باقية، بل إنّها عابرة زائلة.

الفهارس

فهرس الأعلام والجماعات العرقيّة والدينيّة

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الألقاب والوظائف

(أ)

(ب)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

فهرس الأماكن والآثار

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ع)

(غ)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس النقود

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(د)

(ر)

(س)

(ف)

(ق)

(م)

(ن)

فهرس التعابير العربيّة والتركيّة والأعجميّة الأُخرى التى لم ترد فى فهرس الألقاب والوظائف

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

فهرس الشهور

الشهور الغربيّة

(أ)

(د)

(س)

(ف)

(م)

الشهور القبطيّة

(أ)

(ب)

فهرس الأحداث المهمة

١٦٦٤، ٧ ديسمبر، نفى الإنكشاريّة لثمانية شورباشيّة وكاشف ورميهم فى البحر: ٧١

١٦٦٤، ١٣ ديسمبر، مشاهدة مذنّب فى مصر: ٢٧

١٦٦٤، بعد ١٣ ديسمبر، حدوث اضطراب فى القاهرة: ٢٨

١٦٦٤، بعد ١٣ ديسمبر، نقل باى جدّة إلى جِرْجا: ٢٨

فهرس الأحداث الخاصة بالمؤلِّف

فهرس الكُتُب والمؤَلِّفين المذكورين

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(د)

(ر)

(س)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(هـ)

(ى)

المؤلف فى سطور:

جوفنى ميكيله فَنسلبيو

تنوّع اسم مؤلِّفنا بتنوُّع البلاد التى عاش فيها. فى موطنه الأصلى ألمانيا عُرف باسم فَنْسلَيبِ، وعندما عاش فى إيطاليا، حيث وضع كتابه الأوّل (وهو الذى نترجمه) عُرف باسم فَنْسلَيبِو، وفى فرنسا عُرِف باسم فَنْسلِب، وهو الاسم الذى اشتهر به، وظهر على غلاف كتابَيه التاليين .

وُلِد المؤلِّف سنة ١٦٣٥ فى ألمانيا، وبعد الدراسة فى أعرق جامعاتها، انخرط فى سلك الجنديَّة، ثمَّ عمل لوقت قصير فى التجارة، ثمّ تتلمذ على يد العلاّمة الألمانىّ الشهير لودُلف، وتعلَّم منه اللغة الحبشيّة، وربمًا لغات شرقيّة أُخرى، وفى سنة ١٦٦١ أرسله معلِّمه إلى لندن ؛ حيث تعرَّف على بعض المستشرقين، وفى سنة ١٦٦٣ أرسله الأمير إرنِسْت التقى إلى مصر، بهدف التوجُّه منها إلى الحبشة، أقام المؤلِّف فى مصر من يناير ١٦٦٤ إلى فبراير ١٦٦٥، ومنها أبحر إلى إيطاليا، واستقرّ به المقام فى روما، وهناك انضمّ للكنيسة الكاثوليكيَّة، وصار راهبًا دومنيكانيًّا. فى سنة ١٦٧٠ انتقل المؤلِّف إلى باريس، ومن هناك أرسله الوزير كوليير إلى مصر بهدف شراء مخطوطات، والسفر من هناك إلى الحبشة. أقام المؤلِّف فى مصر من ١٨ مارس ١٦٧٢ إلى ٢٠ أكتوبر ١٦٧٣. استطاع فى هذه الرحلة الثانية التوغُّل فى صعيد مصر، حتّى سوهاج ؛ حيث زار الدير الأبيض والدير الأحمر، لكنّه فشل فى السفر إلى الحبشة، وبعد رحلة شاقّة إلى اليونان وتركيا عاد إلى فرنسا، وهناك وجد الوزير قد سخط عليه ورفض منحه مستحّقاته المالية. مات المؤلِّف فى قرية صغيرة بقرب باريس يوم ١٢ يونيو ١٦٧٩. وقد خلّف وراءه ثلاثة كتب مطبوعة، وعددًا كبيرًا من الرسائل، وكتابَين ما زالا مخطوطين.

المترجم فى سطور:

وديع أبو الليف ملك عوض.

ولد فى ٢٥ فبراير عام ١٩٥٣ فى أرمنت جنوب غرب الأقصر – محافظة قنا .

– حصل على الثانوية العامة – القسم الأدبى بتقدير ٨٠٪ عام ١٩٧٢ .

– درس فى المعهد الفرنسيسكانى الشرقى للدراسات الفلسفية والدينية ١٩٧٢ –١٩٧٩ .

– تمت الرسامة الكهنوتية له فى الرهبنة الفرنسيسكانية فى ٤ أكتوبر ١٩٧٩ .

– حصل من روما على دكتوراه فى الدراسات الشرقية الكنسية عام ١٩٨٥، وعلى دبلومة فى علم المكتبات عام ١٩٨٤، وعلى دبلومة فى علم الأرشيف عام ١٩٨٥ .

– يعمل حاليًا باحثًا فى المركز الفرنسيسكانى للدراسات الشرقية المسيحية منذ عام ١٩٨٦، ومدرس علم آباء الكنيسة فى كلية الدراسات الدينية بالسكاكينى منذ عام ١٩٩٠، وأمين مكتبة جمعية الآثار القبطية بالعباسية (شارع رمسيس) منذ ٢٠٠١.

– له العديد من المؤلفات والترجمات والمحققات، أشهرها تحقيق كتاب "مجموع أصول الدين ومسموع محصول اليقين " للكاتب المؤتمن بن العسال (القرن ١٣).

– له عدد كبير من المقالات بالعربية والإيطالية والفرنسية .

التصحيح اللغوى : **صفاء فتحى**

الإشراف الفنى : **حسن كامل**